PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

١٥٥٧٤

علي حيدر

القيادة الشعبية

في

البلاد العربية

Haydar

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY PAIR>
32101 009761410

الاهداء

الى

المليك العربي الصغير

جلالة فيصل الثاني : ملك العراق

(RECAP)
DS38
.9
.H39

الفصل الاول - اصول تاريخية

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »

- قرآن كريم -

منذ ما فتحت عيني على بيئتي الاجتماعية - وانا على مقاعد الدرس - كنت ارى نفسي كالطفل الذي ابكاه شبح تراءى امامه ، فالتفت عائلته حوله ، هذا يصرخ ، وذاك يزغرد ، والآخر يضحك ويصفق حتى هدأ الطفل مبهوتاً امام الضجات الهازلة ...

وما زلت ، حتى رحلت الى بلاد اخرى طلباً للعلم ، وتقدمت في رشدي فبدا لي وضع حياتنا يفصح عن انباء غريبة ابصرت حوادثها في بيئتي الاجتماعية : امتنا تضج وتبذل دماءها متألمة من نير الاستعمار لتقفز الى الحرية اسوة بالامم التي نقرأ كتاب نهضتها المبدع ، فتقدم على مراحل مختلفة ارواحها لهدفها ، الا انها لم تقطع خطوة على طريقه ، بل اقول دون خشية : كلما كانت تستغرق امتنا في التضحية وتعود الى نفسها ، لتسمع وقع جهودها كانت تقف حيرى وتصبر مرغمة لانها لم تنل اي امنية .

ان اغرب مظهر كان يبدو امامي ، انه بعد ان تنتهي المعركة الدامية بين السلطة مباشرة والاهالي ، وتعتلي الحكم فئة - لا اعلم عنها شيئاً - فانه لا يمر سنة او دون ، حتى تعود الامة لتكافح رجالها (الوطنيين) وتتظاهر

لاسقاطهم . ذلك حادث له خفاياه حاولت ان افهم لنفسي بواعثه

فانخرطت في ميدان الجدليات السائدة عن ماضي البلاد العربية في العهد العثماني فالثورة العربية . . . فالاحتلال الفرنسي .. والانكليزي . . وادواره فالحكومات المتعاقبة . كل ذلك وانا اعود الى دراستي التاريخية عن النهضات العالمية ، فاحاول ان افسر نجاح تلك الامم فلا اجد سوى عدد من الرؤوس البارزة على صفحات التاريخ تعلن دوما عن نفسها . . بادوارها في ميدانها القومي .

ملوك . . وزعماء . . وفلاسفة . . وشعراء . . وعصابات واحزاب . . . وكل مملكة حية على رأسها قائد ملهم تقوده فكرته ـ ليس الا ـ الى الموت او النجاح .

ليس من مظهر في بيئتنا الا وكنت اجد له جذوراً في تاريخ امة اخرى ، فارى كيف كانت تتبدل الاوضاع بتفسيرها : دعوات فلسفية . . ونظم تربوية . . وبرامج حزبية . . ترى فيها الكفاءة الروحية فقط سبيل الظهور والتقدم لاي فرد كان .

عدت الى بيئتنا لافتش على احزابها وبرامجها . . والى المفكرين لافتش عن مؤلفاتهم . . ثم خرجت الى الساحة القومية فتساءلت عن هذه النواحي في البلاد العربية المختلفة في كل ممالك حياتها ، فعدت حزيناً الى نفسي اسألها اسرار الدحار امتي ، فكان خيال (الرؤوس) التي رأيتها في كل مظهر حي في النهضات العالمية يحتل في نفسي مكانه الاول وتقف محاكمتي عنده

فاقول يظهر ان (رؤوسنا) فاسدة .

واخذت فكرة (الرأس) او القائد تنقوى في نفسي حتى ارتفعت على كل الحلول الاولى وكدت اقول الى دون النهاية :

« ان الامة التي لا يتيسر لها عدد من الرؤوس النابغة تعلن عن نفسها بهم ، سوف لا يتيسر لها النهوض ولا مقاومة الأمم الباقية » .

بعد ان فرغت من فكرة القائد الاولى كنت اعود لدراسة فعاليته في بيئته الاجتماعية : الا وهي تعاون القائد والجنود على كسب المعركة. فقدمت لي تلك النهضات اشكالا من القيادة على اسماء مختلفة ، في مقدمتها النبلاء والاشراف وهم الطبقة « الاريستوقراطية » المتفوقة على اسماء مختلفة «لورد» . . «فون» . . « كونت» « والبوشيدو» اليابانية . . الا ان عائلاتها جميعها تمارس تربية محددة جداً ضمن تقاليد ليست اقل قساوة من تطبيق اساليب تربيتها .

ثم حولت نظري الى الطبقات الشعبية الاخرى ، فبهرتني سرعة اجابتها للدعوات القومية المخلصة او رفضها لاساليب الحكم المستبد في صورتيه الداخلية والخارجية .

ـ . بين القيادة وبين الطبقات الشعبية . .تنقلت ، ثم الى تطور وحدة الدول الاجتماعية والسياسية وما اجتازها من تيارات فكرية متباينة ، كلها ليس لها معنى في نظري الا ان اعود الى امتي فادرس اسباب انحلالها على ممر المراحل التاريخية . ولذلك لا اراني مسرعاً اذاما تساءلت اول بدء عن

الرؤوس) التي تبرز في مجتمعنا وتقوده، كما برزت في النهضات العالمية وقادتها، متجاهلا الان او معتبراً ان الاستعمار الجديد (الفرنسي او الانكليزي) حادث طارئ سيزول يوماً تحت ضغط الظروف الخارجية او بتبديل حياتنا الداخلية قائلا :

هل النبالة سؤال عندنا ؟

النبالة ليست سوآل مجتمعنا الحاضر الا بمعنى الصفوة المختارة من الامة العربية لقيادة الجماهير . وهذا عمل يتناول المستقبل. اما الحاضر فليس ما يبرر فيه طرح سؤال النبالة بالمعنى الذي يرد عند الأمم العريقة الاخرى. لان هذه التقاليد قد اندثرت من تاريخنا امام تيار (اسلم) الدينية التي كان موضوعها عشرات الشعوب وتتف الشعوب المتفرقة .

ولكننا امام سؤال مشابه من طبيعة اخرى هو سؤال « الطبقية ».. فسؤال النبالة بالنسبة لدائرة الكلمة الخاصة او بالنسبة للمجوعة البشرية الواحدة التي تنوجد فيها «نبالة» ينبثق عن فكرة الدم الواحد في عروق النبلاء بالولادة ـ وثم بالوراثة . . كنبلاء فرنسا قبل الثورة او الشعب الواحد بجميع طبقاته كنبلاء المانيا وانكلترا واليابان .

اما سؤال الطبقية ، فيعرض عندنا في اطار غامض المعايير ، خاص ليس له اي حظ من طبيعة السؤال الاول لانه لا يعني في بحثه الان وحدة الجنس بين «الطبقة» . والشعب . ولا وحدة «الطبقة» جنسياً .

لان الاصل الغامض الذي تنتمي اليه العائلات التي تشكل طبقة غريبة عن امتنا يعود الى اصول جنسية تتفرق على مجموعة من الامم الدخيلة، المستذلة في عهودها القديمة والاسلامية الماضية - بالنسبة للعرب - وشعور هذه العائلات بوضعها، انها فرضت فرضاً بالقوة على مقدرات مجتمعنا.

فرفعة الاصل التي يشعربها شعوراً ايجابياً اصحاب هذا الاصل الجنسي ما زالت مستندة الى شعور الشعب بالاصل المشترك بينهما. لذا لم يكن لمثل هؤلاء الاخرين ما يميزهم عن شعبهم من حقوق سابقة مفروضة وتكاليف استبدادية مجهولة الاسباب لا تقابلها مسؤولية (كحقوق النبلاء في فرنسا) بل اكثر ما تتمتع به ان الشعب منحها حق التقدم في حياته التي يمثلون فيها قيادة عنوانها «التضحية..».

اذا عدنا الى تاريخ العرب الجاهلي، رأينا العربي الذي عرف اشد الامم تعلقاً بحريته واقواها فردية كان وما يزال يحتفظ عن رضى وارتياح لهذه العائلات المختارة بتقدير كبير وينتصر لها في الملمات.

فلا صروف الدهر ولا الغلبة ولا الفقر... كله يسلب العائلات البارزة قيمتها الشعبية الا عند ما يتلوث نسبها وتنحط مثلها الخلقية.

عند ذلك - فقط - دون تحفظ او مكابرة ودون ان يلاقي هؤلاء فرداً يسندهم يموتون من وجدان القبائل ويلبسهم العار الى الابد.

واذا لم يكن موضوع دراستنا هو احياء هذه التقاليد فبناء دولة

عنصرية كما يتوهم لاول نظرة فاننا لا نعدو ان نمتحن اوضاعنا الاجتماعية من وراء هذا المفهوم العريق في اخلاقنا القومية ، ولتقييد فعالية الطبقات الغريبة العدائية التي تهدد بلادنا بالخراب .

واذا كانت الاسلامية . لا تعترف على الوضع المنكر الذي يتمتع به المتنفذون الغرباء ، فانها لم تجعل بينهم وبين الشعب سداً يحول دون قبولهم.

لانها الغت الروابط الوثيقة بين الوضع الذي يأخذه الفرد الدخيل على الامة فيها وبين اصله الجنسي

على ان الامويين الذين استلموا الحكم بعد الخلفاء الراشدين عدلوا في مفهوم الدولة الاسلامي (الأممي) .فرجعوا الى جزئيات التقاليد الشعبية الاولى واعلنوا قومية الدولة في وراثة الحكم من جهة وابعاد العناصر الاعجمية عن وظائفها . فلم يعترفوا (بالوجود الكامل) للمسلم الاعجمي في حقل الدولة القومية .

هذا العمل كان وفاء للتقاليد ومقتضيات البنيان الاجتماعي، الذي اختارته النفسية العربية في سالف حياتها .

وبشكل آخر : اذا كانت المفاهيم القومية للقبائل العربية في الجاهلية تبني قيمة الفرد في المجتمع على صفاته الطبيعية وتحققها في نطاق الخلق القومي فان هذه القيمة الانسانية التي يأخذها الفرد - بعد اسلامه - مرتبطة بنسبة تطابقه مع الفروض الاخلاقية الدينية المعينة للمجموع ، والمترابطة

بداية ونهاية ، وماوراءها .

هذا القدر الجديد كان اسرع انتشاراً واسهل انطباعاً على نفوس الامم التي اسلمت بعد العرب ، لانها جميعها اضعف بنيانا ـ اخلاقياً وطبيعياً من العرب المنتخبين في بيداء الجزيرة .

من هذه الشقوق الضيقة فتحت ثغرات كبيرة في البنيان الاجتماعي العربي ادت الى ظهور نتف من الامم المستذلة ، وصعودها الى الحكم عن طريق التلون . . . والخدمة . . والخبث ـ المزيلة للشخصية ـ لاطريق التفوق الحلقي والعقلي كالمماليك من شتى الاجناس .

ادت تلك الوامل الى تصدع الدولة وسقوطها وانحلال الروابط القومية الموروثة في كل الميادين .

ـ تدريجياً .. ضمر الفردوخبت اشعته الشخصية فشكلت في هذه الفوضى تلك الاميات طبقات متوالية خاصه ما لبثت ان تفككت عاجلا الى عائلات تعيش ـ باخلاقها السلبية ـ على حساب المستضعفين هي نفسها العائلياب الطائفة على وجه مستقعنا الاجتماعي الحالي .

ما هي مفاهيم هذه الطائفة ؟

تجمعها نتائج واحدة على اختلافها ولنبدأ بمفهوم الدولة !

بعد ان خلصنا من الاشارة الى مفهوم الدولة كما يمكن ان يستخلص من المعلومات المتجمعة لدينا عن المجتمع والشعب والحياة عند العرب الجاهليين

وال الدولة الاموية لبث العنصر العربي بتحقيق دولة قومية - بكل معنى الكلمة - علينا ان نفتش عن المبادىء القومية الباقية كيف بدأت تختفي من الوجود بعد انحلال الدولة القومية .

اذ بدأت تطفوا العناصر الغريبة المستسلمة على وجه المجتمع وتضرب بمعول اصلها العقيم وانانيتها في كيان الدولة حتى تجزأت وفقدت وحدتها في كل الميادين .

لقد انتهت السلطة - تدريجياً - في البلاد التي بسطت نفوذها عليها الدولة العربية وملأتها بالشعب العربي قروناً - زيادة على سكانها العرب الاصليين - الى الشعوب المستسلمة فتشققت وحدة الدولة والمجتمع منذ العهد العباسي حتى وصلت القيادة الى الاتراك العثمانيين الذين اعادوا للحكم شيئاً من تماسكه بصرف النظر عن المبادىء العربية .

في العصور التاريخية بعد الحكم العثماني بدأت سلسله من النظم واساليب الادارة التي لا يعرف العالم اقبح ولا افسد منها على الاخلاق نتيجة لعقلية واخلاق الشعب الجديد الذي انتهت اليه السلطة الشرعية في البلاد الاسلامية .

ثم اخذت تتفشى روائح التقاليد المغولية في وسط هذا الخليط المضطرب ويستتبع الخرق الاخلاقي الذي كان وما يزال تتفاداه طبقات الفلاحين العرب في الارياف والقبائل البدوية .

تجتمع في بلاط الخلافة العثمانية بطارقة الاتراك العتيدين الاغبياء

الذين تقلصت فيهم كما تقلصت في شعبهم روح الغيرية والتضحية واصبحت انانيتهم الثقيلة معنى تصرفاتهم . فلم يشبع لؤمهم الا تسلمهم عنان الحياة العامة للشعوب المسلمة واقلياتها الدينية التابعة للعثمانيين. ولم يكن في طرز الحكام هؤلاء الا حظ واحد كما يظهر : ان يتثبتوا في الارض التي يتولونها ليستثمروا الى ابعد حد سلطتهم السياسية فتملكوا زمام الثروة العقارية على حساب اصحاب الملكيات الصغيرة من الفلاحين العرب .

لان خطر الادارة الفاسدة لوحده كان يتناوب على دفعات من جهة ويضمحل بزوال صنمه . حيث يفترض الجمهور العربي السوء الملازم لجميع الولاة العثمانيين المتعاقبين على بلاده وينتظر صابراً مرورهم . غير ان ازدواج المصيبتين : كان بقاء الموظفين الاتراك في الامكنة التي يعينون لادارتها . اذ كانت هذه الموجات التي تشحنها تركيا العثمانية لادارة الاقاليم التابعة تضطرم رغائبها الخبيثة بالشراهة والجشع للنهب، مؤيدة بنفوذ الدولة التركية السياسي الذي ينقذ تصرفاتها من المحاكمة ويشجع اباحيتها . وهذا ما حمل هذه الطبقات ان تكلب في اماكنها . بعد ان تفقد وظائفها - عن طريق التملك العقاري بالدرجة الاولى وحبانا بافواج من المهاجرين الاتراك اصبحت تحل في بلادنا ضيفاً مزدوج القيمة : وظيفة حكومية ، واقطاعات عقارية عنوان لشرف الطبقة التي ينتسب اليها الموظف الطوراني .

واذا لم يكن لنا من غرض ان نفصل جزئيات هذا التاريخ ، فاننا

لا نمر به دون ان نعطي النتائج الضرورية لهذه التصرفات الناتجة .

تركزت الحياة الاقتصادية في ميدان الملكية العقارية الكبيرة، وفي ميدان الوظائف الادارية وفي ساحة واسعة من الميدان العسكري بيد هذه الاجناس التي قذفت بها السلطة العثمانية من بر الاناضول الى البلاد العربية لتمسك بيد جشعة على مقدرات معاشها .

اذ كانت الملكية العقارية الكبيرة ولا تزال في بلادنا دليلا على النفوذ الاجتماعي لا بل جسراً له، بما تسمح لربها ان يغل اعناق مئات من الفلاحين الذين يستخدمهم في اقطاعاته الواسعة ،في حين كان في هذه الملكية الصغيرة ما يسمح لاصحابها الفلاحين ان يعيشوا بمعزل عن تيارات وحوادث السياسة التركية الدنيا، التي عكرت صفو اخلاقهم واذهانهم . الا ان هذ الكنز الثمين بدأت تفقد قيمته تدريجياً عند ما كان ينتزع انتزاعاً ارغامياً بلا بدل او ببدل حقير ، او كانت تفرض عليه ضرائب لا تحتملها غلة الاراضي المعطلة .

فتزايد الضرائب او ثقلها على عقارات زراعية في بلاد حرم اهلها حسن الادارة ، بل تآمر رئيسها على مرؤوسها لا نتيجة له الا هجر الارض للتفتيش على منبع اقتصادى جديد .

ان حرية السكان في البلاد العربية اصبحت مهددة كل ساعة تحت جشع ولؤم هذه الطبقات الطورانية المتكالبة على المصلحة .

. . . . .

تركزت الاقطاعية التركية في بلادنا عبئاً ـ كما قلنا ـ على ثروة البلاد واخلاقها لتمارس سلوكا مخرباً لا يبقي على مفهوم قومي ، وبدأ السلطان العثماني يفرش ارض قصره باصحاب المراتب والمقدمين من اتراك شعبه المتنفذين . وبعد ان شبع البلاط العثماني من وجهاء الاناضول وزعت البقايا على البلاد العربية لتحكم بالعدل والشرف كما عرف العرب من سالف حكامهم القوميين .

من هم اصحاب المراتب هؤلاء ؟

نستطيع ان نسميهم موقتاً ـ نبلاء الاتراك ..

لأن لفظة النبالة او (الشرف) المعنية عند الامم العريقة الباقية ـ كما قلنا ـ ليس لمدلولها اي اثر بين تقاليد هذه الطبقات . لأن النبالة المعنية تستند الى (الولادة) والعراقة في بنائها. واذا لم يكن لنا غرض في تقصي هذه النقطة فما علينا الا ان نعدد مراتب الشرف الطورانية التي اصبحت فيما بعد تقاليد مزيفة على نظر الامة العربية .

عرفنا اربعة القاب لهذة المراتب تحدد فيها قيمة الفرد المنتسب اليها في وضعه الاجتماعي او بالعلاقة مع السلطان . وهي :

افندي : وتعني السيد . وفي المخاطبة العادية : افندم وللسلطان وحده يقال : افند ميز : وتفسيره ـ يا مولانا ـ

آغا : أمي ، رعاعي المعرفة ، ذو نفوذ اجتماعي بناء على ثروته الاقطاعية

بيك : متعلم ، بارز اجتماعياً، له رتبة حكومية ممتازة .

باشا : لقب يمنح الى حاشية البلاط دون النظر الى اصلهم او كفاءتهم او للقادة العسكريين .

امتلأت البلاد التركية والاسلامية بهذه الالقاب الممنوحة من السلطان العثماني تحت اعتبارات عديدة . فكان (موّال) من الشعر التركي العامي تستريح لسذاجته اذن السلطان كفيلا وحده ان يمنح المغني وظيفة حكومية كبرى ليصبح (بيك) أو يقطعه قرية ليصبح (آغا) او ايلحقه في البلاط ليعطى (الباشاوية) في مناسبة ساخرة . .وفي التالي والياً او وزيراً كما روى لنا التاريخ .

واذا اقول تركية فماذا اعني ؟

ليس عنصرا معيناً كما يفهم لاول وهلة . لأن هذا اللفظ لا يعني في الواقع عنصراً صافياً اسمه (التركي). بل اعني «الخليط المشترك من الرعايا المسلمين القاطنين الاناضول وجوار الاناضول من غير العرب . فما اسميه تركيا ايجازاً : هو كل العائلات التركية الطورانية والكردية والارناؤطية والجركسية والافغانية والفارسية. ومايلحق بهذه النتف الشرقية المستسلمة.

والان : يستنتج من التحليل المتقدم عن القاب الشرف التركية التي تحتل في الحاضر مركز التقدير في اذهان الجماهير الشعبية وتجسم خطر صاحبها ان هذه الالقاب تبني على الاعتبارات الاتية :

١ ـ ليس لهذه الالقاب جذور في كفاءة الانسان الطبيعية بما يتناسب مع المرتبة التي يحتلها في المجتمع .

هذه الكفاءة التي تحدد قيم الافراد ـ كما قلنا ـ في تقاليد القبائل العربية وتعين الوضع الاجتماعي الذى يصعده الفرد .

٢ ـ ليس لهذه الالقاب علاقة بالاصل الجنسي الذي ينتسب اليه الفرد وبالتالي : لا رابطة بين هذا الاصل وبين الوضع الذي يتبوأه في مجتمع من غير جنسه .

٣ ـ انها تستند الى الثروة المادية ـ لاحقاً او سابقاً ـ او تخلقها الثروة المادية خلقاً . ثم الى الوظيفة التي يشغلها الفرد في الدوائر الحكومية التي ارتقتها اساليب الموظف الملتوية .

في حين لا يرى العرب في هذه الثروة الا جسراً تعبره النفس بخفة الى ضفة الكرم والمروءة .

فاذا استحق المال السعي اليه فليس لأن له قيمة في ذاته بل لأن حرمانه لا يسمح للفرد كما يسمح وجوده ان يعبر عن هذه الاخلاق تعبيراً عملياً.

وفي الواقع : ان الثروة تعين على الحياة المستقلة، وتهيىء بسهولة اكثر الشروط الضرورية للحياة الخاصة ـ ظاهرياً ـ مما لا يترك الفرد العادي تحت كابوس العوز الذي يحرك الحماقة والنزق او النقمة على المجتمع .

فاذا ازمنت العازة في حياة احد الاشخاص ، وعادت الى الرخاء ، فلا

يمكن ان نصدق ان هذا الانسان قد تخلص ـ باطنياً ـ من لوثة الحرص والحسد . فكأنه ما زال يحفظ عن الحياة قسوتها عليه وهذا الشعور النفسي قد ينتهي الى سلبية تحرم المجتمع من عضو روحي تعاوني ان لم تجعله عبئاً على تقدمه .

واذا حرمت النفسية زمناً كبيراً هذه الشروط فلا شك انها تستعد بسهولة اكثر للتلطخ بالخطايا ، ان لم نقل انها تسير في طريق شائك قد تنتهي الى تدهور الفكرة التي يبشر بها الانسان النبيل .

ان ادنى المجتمعات هي التي تطبعها هذه الحوادث المخجلة في حق الانسانية .

. . . . .

نعود لنقول : لا يرى العرب في هذه الثروة المادية الا سلماً تصعده الحياة الى جو اسهل وارق . ومع ذلك فان تاريخ الكسب والانفاق في الحياة العربيه القديمة يبعث على الغرابة والاعجاب لما حققته هذه الشرازم البدوية من مثل هي بذور نهضتنا المدنية المثلى .

فاذا كانت الوظيفة والمال هما سببا الشرف المتجسم باللقب الاصطناعي يلصق لصقاً على الفرد التركي فان هذا كله لا يقود الى الخطر الاخلاقي لو لم تنقل هذه التقاليد الجوفاء الى ذهن جمهورنا لتصبح علامات نهائية للقيمة الانسانية . ولا نزال نتذكر ان عائلة تركية بارزة ليس منها موظف حكومي هي مثلومة الكبرياء التقليدية .

لا غرابة في هذا : لان ادنى وظيفة حكوميه في الادارة التركية القديمة كانت منبع ثروة لا تنضب .

ومن جهة ثانية : طالما ان الثروة سلم للشرف والتسلط على الجمهور فليزحف انسانهم زحفاً لتقبيل نعليها المقدستين .

ما له ولسبل العيش الباقية ؟ السبل التي تطلب عن طريق (العمل الحر) ،

ان هذا الميدان المتسع - اقتصادياً - لكفاءة الافراد هو ميدان خطير يستدعي الهمة والاعتماد على النفس - وبالتالى : الاستقلال الشخصي عن مقتضيات الفروض والواجبات الحكومية واساليب التزلف التي تحتمها مسالك الادارة التركية .

الملاحظة الثانية: ان القاب الشرف التي ترمز الى الطبقة (الاريستوقراطية في البلاد الاسلامية كانت في سياق مفهوم القانون الديني : اذ ان الدين الواحد يعمم قوانين واحدة على اتباعه بصرف النظر عن اصولهم الجنسية. وهكذا انفصلت فكرة الاصالة عن المرتبة الاجتماعية خرقاً لقوانين القبائل العربية التي لا يجوز عندها ان يكون كبير امة من اصل غير اصلها .

لنرجع فنفتش على منابع الثروة عند هذه الطبقة : فنتساءل ما هو منبع الثروة الاصلي ؟ ؟ .

لافتش عما في جيبي من الدراهم ! من اين لي هذا ؟

لقد عملت كبناء في مدينتي وربحته اجرة عملي اليومي . او عملت كنجار في معملي وربحت فضل رأسمالي المصروف مقابل عملي . او فلحت ارضي وزرعتها فاعطتني ريعها السنوي مقابل عملي . اوعلمت في المدرسة او الفت كتاباً انفقت الوقت لانجازه او هاجمت حتى بسلاحي وانتزعت ثروتي او قامرت بالقليل فربحت الكثير او بالتالي : ورثت مالي الذي اكتسبه والدى بطريق من الطرق المتقدمة .

فأي اساليب العمل المباشر سلكت هذه الشرذمة لجمع ثروتها ؟

هل بالتعاون مع الطبيعة في الزراعة . ام مع الآلة في الصناعة . امع الحاجات بالتبادل في التجارة ام افتتح لها الحظ كنزاً ؟

ان كل الاساليب المتقدمة تقتضي الجهد الايجابي واحتمال المشقات والاخطار والمسؤولية لجمع الكمية التي وجدتها في جيبي .

وسؤال آخر : ما هي انواع الملكية التي تحوزها هذه الطبقة ؟

انها منحصرة اطلاقاً في الملكية العقارية . واذا انحصرت في هذا المنبع فليس الا لأمرين :

١ ـ ان الملكية الصناعيه لا تضع تقاليدها الا يد الفرد ذي المواهب العقلية والصبر على العمل لتستسلم اليه على مرور الزمن .

٢ ـ ان الملكية الصناعية لا يتحدد تأسيسها في مكان معين ولا تستلزم استخدام سكان معينين وبالنتيجة : فلا تحقق التسلط الشخصى لرب المال على العمال شخصياً ، بل قد تكتفى بسلطة رأس المال المنتقل على الجهد

الجسدي المتبدل ابداً دون اعتبار آخر . بينما الملكية العقارية الواسعة لاتطلب تلك الجهود العقلية والخلقية المستمرة التي يتطلبها التقدم الآلي .

وهي ثابتة ايضاً : بحيث تديم سلطة المالك الشخصية على شخصية كل فلاح بين يديه . اذ ليس من السهل انتقال العامل الزراعي بعقليته المعروفة خالصاً من حقوق وضغط الاقطاعي كما لو قيل عن عامل في مصنع آلي . والينا بالنظر المتقابل في كبار الصناعيين والملاكين العقاريين ليتسع البون عقلياً وخلقياً بينهما ومدى ارتباط كل منهما باحوال المجتمع والخطر الذي يهدده فيما لو اساء كل منهما استعمال فعاليته .

ولنعد الآن الى السؤال الاصلي ! عن اى الطرق جمعت هذه الشرذمة اراضيها ؟

عن طريق الجهد الفردي المشروع ؟

لنفترض ان انساناً اذن تملك ـ بطريق ما ـ قطعة ارض زراعية معتدلة المساحة، اتخذها منبعاً لثروته ، ثم استمر على اساليب العمل الشرعية المنتجة فابتاع من ريع الارض قطعة ارض اخرى بمساحتها وجمعها لاختها ثم توفي وسلك ولده مسلكا مشابها فضاعف مساحة الارض الموروثة ثم توفي وترك ولداً واحداً ضاعف مساحة الارض بجهوده على طريق مشروع ايضاً . وهكذا حتى تمر خمسة ادوار في كل منها تتضاعف مساحة الارض ولا يلد للمتوفي الا ولد واحد .

اقول ذلك : في حين يستحيل هذا التناسل . فقد يكثر عدد الاولاد

وقد يموت احد الآباء عقيماً وتتبدد ثروته بين الوارثين . كما يستحيل ان تقع هذه العملية من متابعة جهود خمسة احفاد على نظام مضاعفة المساحة بالطرق المشروعة .

لو فرضنا تحقق هذا المثال فما هي المساحة التي يمكن ان تعطينا اياها الارض الحاصلة بعد موت الحفيد الخامس .

اذا كانت مساحة الارض الاولى (١٠٠٠) من (الدونمات) يكون الاخير قد جمع (١٦) الفاً منها . في حين ان هذه المساحة المتواضعة ليست قرية من عشرات ومئات القرى التي يملكها هؤلاء الاقطاعيون في البلاد ـ مصر ـ سوريا ـ عراق ـ ويملكها احفادهم .

فالجهد الفردي المشروع مهما تضخم ، مفترضين نموه المتواصل بطريق الوراثة والعمل لا يعطي حسابا قريبا من الارقام الواقعة تحت يدينا عن اقطاعاتهم .

لنفتش عن طريق آخر : الصدفة . المقامرة . الكنز .

نفترض ان طائر الحظ هدأ على رأس احدهم وقاده الى كنز او مقامرة رابحة . هل يعني انه وقف على رؤوسهم جميعاً ؟

لم يبق الا طريق السرقة . وطريق آخر هو الهبات والاقطاعات السلطانية الحمقاء

. . . . .

اذا تجسدت السلطة السياسية العليا في شخصية دينية عليا فمعناه ان هذا الفرد اصبح يحمل بين شفتيه مصير كل مخلوق بشري تحت ظله . اي بيده مقاليد الحياة والموت على المواطنين الارضيين في حدود دولته . واذا كانت الخلافة الاسلامية تجمع في العصور الماضية السياسة والدين ، فان عروبة الخليفة كانت تقربه من الشعب والكتل العربية التي تسند الدولة سياسياً .

تعين كل هذه الاسس مسالك الخليفة ومآربه حتى انتهت الخلافة الى حق ابدي وسلطان شخصي غير محدود على الافراد ولا مردود واذا كان لاصحاب المراكز الدينية في الخلافة العربية ما يبرر تدخلهم في الحكم والاعتراض على الخليفة عند ما يشتط في اهوائه ويهمل واجبه الدنيوي والديني في اقامة العدل فان هذه الفئة (الدينية) لم تكن في العهد العثماني الا خادماً ملحقاً في الحقيقة بشخص السلطان لتؤيد اعماله وتبررها مقابل الاعطيات والرشوات التي يطمس بها السلطان على خلقهم التركي فلا يبصرون خطيئة الا وتكفّر بالمال .

فاذا كان السلطان العثماني يشتري هذه الفئة بالمال فقد كان ـ بالاضافة الى ما تقدم ـ يطبع الحكم بطابع جديد هو شخصية السلطان التي يضعها فوق الدولة .

هذا الانقلاب الخطير في مفهوم الملك ، او الخليفة فالدولة ليست الا

نتيجة لتبدل طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم على الرغم من وحدة الدين التي كان يظهر انها تربط الامم الاسلامية ربطاً محكماً .

فاذا كان الخليفة في العهد العربي لا يرى نفسه الا شخصاً مسخراً لقيادة الدولة مسؤولا عن العدالة: الامر بالمعروف والنهي عن المنكر بين الناس ، فليس من روابط تجعل الخليفة التركي يري نفسه في هذا الموضع الا انه هو الدولة كلها ، فيملك السلطة ملكاً مطلقاً : السلطة التي تعني شخصه المتعالي على السلطات الشعبية والمصالح العامة .

ان السلطان الذي كان يؤمن بنفسه الايمان المطلق ، كان يسلك عملياً في ادارة الدولة مسلكا لا يعني الا تسليط الرؤوس الطورانية الحمقاء على الشعوب التابعة لاخضاعها للحكم التركي .

تثري هذه الرؤوس وتضخم مراكزها على حساب الطبقات الشعبية العربية المنعزلة عن الحياة السياسية الغارقة في الجهالة والظلامات .

انتقى السلطان هذه الرؤوس : ولاته وحكامه ـ طبعاً ـ وموظفيه على البلاد الاسلامية من بين اصحاب الرتب (الاريستوقراطيه) التركية المتبدلة دون معرفة في كفاآتها واخلاصها .

فاذا كانت شخصية السلطان تعني الدولة او فوق الدولة فان المقربين اليه ، اولئك المتهالكين حول القصر ، الذين حرموا بمنبتهم مشاعر الكرامة هم الذين كانوا يرضون في السلطان ميوله للغطرسة والاستبداد ، او شهوة

من شهواته الخبيثة الاخرى .

امتلأ تاريخ السلطنة العثمانية بهذه الامثلة والوقائع القبيحة والمضحكة معاً ؛ حتى اصبح لا يستغرب ان يصبح مهرج الخليفة احد الولاة الكبار او شاعره (حاكماً منفرداً) او حاجبه قائداً او سائسة وزيراً وكلهم باشوات باكوات ...

ان ارضاء السلطان باساليب التزلف المعروفة في القصور والتي وقعت باخزى صورة بالعهد التركي كان يعين هذا التقرب نفسه المرتبة (الاريستوقراطية) التي تركب الفرد بين عشية وضحاها .

سبيل الكذب، والوشاية، والجبانة، والرشوة ، والنساء، والشهوات والانحناء وكل ما يتصل باخلاق العبيد الذميمة في هذه الحياة الدنيا . . هي سبيل الوصول الى ارضاء السلطان التركي وبالتالي : الى المراتب (الاريستوقراطية) والى الثروة والى الوظيفة الحكومية العالية .

لقد بسط التاريخ تفاصيل هذه الاحكام . وعجت صفحاته بحوادثها فما لنا الا ان نستمر في وجهة نظرنا الى نهاية الدراسة المطلوبة.

. . . . .

ان الرتب والالقاب والوظائف التي منحها السلطان خدامه لم تكن تعني الا الوفرة المادية او تنتهي بها ، فما من احد منهم الا واقطعه السلطان ـ بمناسبة شخصية ما ، ـ قرية او افدنة لأن اموال الدولة واملاكها تحت يده لا حساب ولا عقاب . هذا عدا عن املاكه الخاصة التي تحول القانون

نفسه من مخطط يؤمن سير العدالة الاجتماعية والرفاهة الى مؤيد لاحكام السلطان وتصرفاته الخرقاء .

بدأ السلطان يوزع الاراضى على المقربين اليه ، وينفق اموال الدولة على شهواته ومصالحه الخاصة ، متجاهلا حاجات الدولة العسكرية والاقتصادية والعلمية والعمرانية الا ماكان جسراً لتحقيق شهواته وحفظ سلطته .

تضخمت ثروات الآلاف الزاحفين الى القصر عن طريق الهبات السلطانية الماديه واجتمعت اليها الرشوات وسرقات الوظائف الحكوميه ليتوسع هذا المخطط ويكشف عن اسرار فعالية المالكين الكبار والحكام الاغراب وورثتهم في هذه البلاد .

ينال تلك الوظائف الافراد الذين تناهت صغارتهم امام السلطان ـ حتى قربوا منه ـ وسلكوا اخلاق القصر التركي ، فاصبحوا يعيشون ومن ورائهم جيش من سقط البشر ، يلحقون بهم الى ولاياتهم ليصبح هؤلاء بدورهم اما موظفين صغاراً او سماسرة : فهم جسر الفساد بين الحكومة والجمهور .

غير ان السلطان نفسه لم يعد ثقة في اوامره وقوانينه ، فانه على الرغم منه كان يضطر ان يبدل تحت اكاذيب الرؤوس المتزلفة حول نعليه وضغط وساوسة التي يثيرونها ، وتهديد الانكشاريات ... ـ التي رمز وجودها لسقوط دعائم الدولة الادبية ـ كل ساعة رأيا برأي اشباعاً لشهواته ومآرب

جلسائه الاخصاء .

فاذا كانت ثروات السلطان الموقتة هي القانون . . وشخصيته هي الدولة فقد كان يلعب على المسرح افواج الدساسين الطورانيين واذنابهم الغريبة المتكالبة على المنفعة المادية والتسلط اللئيم .

يغرون ببعضهم البعض الصنم الاكبر ، فيضطر لتحقيق كل وشاية متجددة متوهما حفظ كيانه بها لاستصدار عشرات (الفرمانات) والاوامر المتضاربة بين عشية وضحاها .

ان سلوك السلطان والولاة والموظفين ، الذين صدرتهم اسيا الصغرى في عهد السلطة التركية ليس لطخة عفنة في حياة الادارة التركية الفاسدة بل دلالة على نفسية الشعب الذي كان يحكم مع السلطان ايضاً .

انها مزيج من اخلاق اولئك الطورانيين وملحقاتهم الجنسية انتشر ريحه في البلاد العربية واخذ يفسد اخلاق السكان ويستخلص الى حكمها اخبث واذم طبقة في البلاد الاسلامية .

فاجتذب المركز المغناطيسي الخلقي الطوراني اليه سفلة المدن واغرابها وخلق منها طبقة انانية تتحرق لاشباع نهمها المادي وشهواتها السفلي ، مستعينة بالنفوذ الحكومي التركي على تبرير اخرق اعمالها حتى تحطمت آخر فضيلة خلقية وشعور عادل رحيم بالحياة العربية المثلى .

فاذا تضخمت ثروات الحكام والموظفين الاتراك وشراذمهم الخبيثة على حساب سكان المقاطعات العربية بالهبات والرشوات والاغتصاب فأن

اخلاقية الأمة العربية بدات تخس وتبذل. عوامل الكبت وقانون الاستقطاب.

.....

فانتهينا الآن: الى ان الثروة التي يملكها الاقطاعيون المتشورن كلوباء في بلاد العرب هي اعطيات السلطان لاتباعه من اموال البلاد العربية وهي الرشوة المستنرفة من دماء الطبقات الشعبية المظلومة وهي الاغتصاب والسرقات التي اكره الناس على السكوت عنها تفاديا لكرامتهم وارواحهم.

كانون ثاني في ١/١/٩٤٦

الفصل الثاني

تمازج الطبقات الغريبة ونهاياته الاجتماعية

«.. كان عبد الملك في مجلسه بالخلافة وحوله جلساءه فسقط عنه رداؤه وهو قائم لينصرف، فهم احد الاعراب بالتقاطه، فانكر ذلك عبد الملك وقال مهلا.. فاننا لا نتخذ جلساءنا خولا . .»

ان انحلال الروابط والتقاليد القومية العربية لم يبدأ بعد صعود الاتراك على ظهر الخلافة الاسلامية وانما سبق هذا الزمن التاريخي باكثر من قرنين. غير ان المناطق البعيدة عن المدن الكبرى (ـ دمشق ـ بغداد ـ القاهرة ـ) كانت بمنجى ـ نوعاً ـ من الفساد الخلقي الذي سقط فيه كل فرد على الاطلاق. كما كان تأثير النظام السياسي والاداري ضعيفاً عليها لبعدها عن مشاركة اصحابه فيه.

عدا عن ان القبائل البدوية والطوائف الشعبية الاسلامية المختلفة. كانت تعيش في بيئة دينية خاصة تحدد ليس فقط العلاقات السياسية بينهما وبين هذه الثلاجة البشرية المتدحرجة على سطح الخلق العربي من بر الاناضول، بل تحدد اواصر النسب ايضاً. حيث كان يندر التزوج بين هذه الطوائف: سواء مع معاشر الاتراك او طائفة السنيين ـ المعتبرة ـ مذهب الخليفة الرسمي. لذلك كانت القبائل الاولى والطوائف المذكورة

احفظ لشخصيتها الجنسية

وكان انتشار هذه الموجات التركية يتسع في المدن بنسبة لا تذكر معها الارياف، ويتقوى الاتصال تناسليا بينها بنسبة ما تتقوى الصلات السياسية مع هذه المدن حتى اصبح من القليل النادر ان تسلم من هذا النسب الدخيل عائلة بارزة في ذلك العهد فضلا عن العدد الضخم من العائلات التركية المحضة المتمركزة في المدن الكبرى .

وقد نبهت الى ان كلمة (تركي) لا اعني بها ولا تفيد عنصراً بشرياً خالصاً بل اطلقها مجازاً لتعني (: الخليط المشترك من الرعايا المسلمين القاطنين الاناضول وجواره من غير العرب ـ كما تقدم ـ)

وقد امتدت موجة التزاوج بين هذه الطبقات وبين العائلات البارزة في المدن ـ خصوصاً ـ تحت اعتبارين :

الاول : ان الدين الاسلامي يبيح ذلك .

الثاني : ان التقارب المذكور كان يبرز العائلة الملحقة ـ سياسياً ـ وينقذها ان لم ـ تقل ـ ماديا ـ من مصائب وعتو الظلامات الاستبدادية الحكومية المتوالية . وعند ما تقع هذه العمليات المشابهة يقلد الاضعف الاقوى في اساليب حياته ويفرض ـ بالتزييف ـ قيم الغريبه مع وجدانه .

واكره من ذلك : فقد اصبحت العائلات التي اتصلت مع الموجات التركية واسطه للتعارف مع جمهور السكان والساطة ، وبالتالي: سماسرة لاستثماره .

تبارت هذه العائلات الغريبة والهجينة - في هذه الظروف. استثماراً داخلياً ثانياً على الطبقات الشعبية يتجسس ويخدم لحساب نفوذه المزيف الذي نفخه الحكم التركي.

واذا كانت لا تعدونا الاصابة، قلنا ان بقايا هذه العائلات والعناصر هي طبقة لها نفس الوظيفة بعد الاحتلال الفرنسي والانكليزي في البلاد العربية ان لم تكن طبقة مشابهة على نفس الطريقة.

وهذا الاستعداد الغريب للانقلاب في الرأي والخلق عند هذه الطبقات الخفيفة الوزن - النفسي - لا يمكن ان تتقدم بهذه السرعة الى التعاون على مجتمعها اذا كان لها حظ من المهابة الشعبية في وجدان امتها.

واذا كان هذا الدور المتكرر الذي يعطي النتائج المذكورة تحققنا سلفاً من غرابة هذه الطبقات المعنية عن الامة التي تحيا بينها وتسرع اكثر من جميع عناصرها للتحلل من اخلاق وفروض المجتمع لتعيش على بؤسه.

ان اخلاقاً عريقة في المقاومة لا تعطيها الا نفسيات رفيعة الاصول في حين لا يحتمل العبيد وانصاف البشر من الغوغاء خيال التضحية الخطير.

اذا كانت الطبقة الحاكمة هي مزيج من العائلات الاناضولية المختلطة في البلاد ومن اذنابها نسباً وخلقاً، وطبقات المتنفذين - اجتماعيا - من بقايا هذه الطبقات المتقاعدين او المعزولين عن الحكم، الذين دقوا اوتادهم في مراكز وظائفهم القديمة، على العودة الى براريهم حيث بنوا ثرواتهم

وامتدت ايادي (اخطبوطهم) الى الحياة الشعبية ، فتركزت قيمتهم بسوابق نفوذهم الحكومي التركي . وكان من جهة ثانية ، التعاون وطيداً بين الطبقة الحاكمة الاجنبية المحضة وبين خليط المتقاعدين واذنابهم من تلك الاجناس وسكان المدن العربية ، فيمكننا ان نتصور عند ذلك ماهي الاسس التي يقوم عليها بناء المجتمع - سياسياً - واديباً .

ان الخلق الفردي مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمناهج الدولة وقوانين الحكم المسيرة ، كما لا يعدو انه ينقلب من المتانة الى التزعزع ثم الى الانحلال في الضائقات الاقتصادية المضنيه .

هذه الحقيقه البينه تتضخم وتقررها الوقائع اذا تأملنا الخطوط المسيرة لحياة المجتمع المعروض .

وبعد ان انتهينا الى الحد الحاضر اريد ان اقسم دراستي الى فترتين تاريخيتين في الناحية السياسية ، فاتكلم عن هذا التاريخ الطويل بايجاز شديد منذ ظهور العنصر التركي حتى الحرب العامة ، واتكلم عن هذه الفترة بعرض اوضاع البلاد العربية على اختلاف مناطقها وتأثير هذه الموجة في مختلف التيارات .

. . . . .

تكلمنا في الفصل المتقدم : ان الخلافة العثمانية هي قوة دينية سياسية تهيمن على العالم الاسلامي المعروف بصورة شرعية ، طالما ان الخلافة منصب

امي والخليفة ولي المسلمين في مختلف بقاع العالم وعلى اختلاف الاجناس . وكيف ان هذا الوضع العمومي هو نتيجة لمنطق الدين الاسلامي نفسه . غير انه كان من الملاحظ ، ان مهمة الخلافة المؤداة اختلفت وتبدلت على ممر العصور تبعاً للشعب الذي يتبناها .

وقلنا ان مفهوم الدولة العثماني كان يستمد من شخصية الخليفة المطلقة اكثر مما هو متعلق بمهمة الدولة العامة ، باعتبار الخليفة شخصاً عهد اليه بتسيير امور الدولة وليس بتفوقه عليها وابتلاعها .

هذا المفهوم ، كان اثراً للروح الطورانية الدخيلة مع الدولة والامه العربية . اذليس في بنيانها النفسي اثر للميول والمفاهيم الواضحة التي توزع خلقاً عميقاً وتقاليد شعبية اصيلة بين القبائل والافراد . وحيثما فتشنا بالفعل في التاريخ الدولي القديم والحديث ، ووجدنا على رأس الدولة فرداً (قيصرياً) نفهم من هناك رأساً تتمة انظمة الحكم وعلاقة الفرد بالدولة والامة . اذ حيثما تهيمن هذه الدولة لتبتلع الافراد في شخصية مطلقة اليد ، نتنبأ بصدق انها لا تخبئ وراءها شعباً اصيلا متين الوحدة يؤتمن في سلوكه الفردي على بناء مصلحته العامة وحفظ كيانه . ويظهر العكس تماما في النتائج عندما لا تكون الدولة القوية الا اداة لتسيير المصالح الشعبية وحفظها بقوة بأن شعباً متين البنيان النفسي والاجتماعي يدعم بسلوكه الطبيعي الحر بناء الدولة والمجتمع .

غير ان الدولة العثمانية التي لم يكن في حكامها الا طائفة طورانية بدوية

من الغزاة الهدامين ، الذين ضمرت فيهم ـ كما في جنسهم ـ مشاعر المحبة وفعالية التأمل ـ لا تعطينا نتائج مشابهة في حياتها السياسية .

كما كان لنا من علاقة الطبقة (الاريستوقراطية) ـ كما سميناها مجازاً ـ بالخليفة العثماني وعلاقة الفرد به الدليل الواضح على صنعة الفرد وانخذاله الابدي .

ان هذه العلاقه هي صنعة ناتجة عن صلة السيد مع عبده . حيث ان حقوق السيادة والتصرف مطلقة بيد الاول وليس للتابع الا طاعة و الخدمة التي لا مسؤولية مقابلة امامها .

ان هيمنة الدولة المطلقة واستبدادها كانت تبدو بين (الاريستوقراطية) والخليفة ايضاً باعتبارهم قادة شعبيين .

اذ ليس لهذه الدولة برامج مسيرة ، وليس لهؤلاء الكبراء الا الانحناء واتقان مراسيم التعظيم والتبجيل التي يضحك منها الفرد الحر وينحني خوفاً وخشوعاً من شكليتها العامي النفس والعقلية .

ولعلنا حينما نقرأ هذا السجل لبلاط الخليفة العثماني ، ومراسيم التشريفات واساليب الحياة والسلطة في دائرته كم هو الفرق العظيم بين اسلوب الحكم المتين الواضح المهاب الذي يضطلع به خليفة عربي قاس جبار (كعمر بن الخطاب) او كعبد الملك والوضع الذي يحتله في سلطته الغاشمة الحمقاء السلطان العثماني .

واذا كانت هذه المقارنه ساذجة فعلينا ان نتذكر الكلمة التي خاطب

بها عمر المسلمين في المسجد قائلا يا معاشر . . .

(من رأى منكم فيّ اعوجاجا فليقومه . . .) فبادره بدوي رصين يمثل كبرياء امته ومقام الفرد في دولته قائلا (والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بحد بسيوفنا) .

فهل نرى حذراً اذا قلنا ان الفرق بين هذين المفهومين المعروضين عن الدولة هو الفرق بين امتين الاولى العربية والثانية التركية الخليطة .

حيث تنبثق الدولة بممثليها حفظة لخلق الشعب وتراثه وتحقيق زعامته وتأمين مصالحه في البيئة الاجتماعية في الشعب الواحد . وتتركب الدولة سيفاً مطلق التصرف ، محاطاً بالميزات المستبدة ، والتخويف على عنق الامة لتبتلع افرادها في حياتهم العامة والخاصة .

ان الموظفين في دولة كهذه لا يشعرون بمسؤولية امام الشعب ـ الحاكم الاعلى ـ وانما هم خدم السلطان نصبوا لارضائه . ولهذا يعجزك ان تظفر بموظف عادل في هذا الجهاز ارتفع على وضع العبد او تعفف عن الرشوة ان لم يكن بدأبها حياته وانتهاها بها .

ان خلق الدولة والموظفين والانظمة اصطلاحات كيفية وافعال آنية تتبدل قوانينها بتبدل موضوعها . ذلك ما اعطته نفسية هذا الخليط الطوراني المشوش الاعمى .

فاذا انتهينا من الميدان الحكومي الى هذه النتائج وذيولها المتقدمة

فان ميدان الحياة الاجتماعية اشد (ملغمة) واعمى فوضى نفسية .

. . . . .

ان السياسة بمعناها الحديث، كمنهاج عملي لحياة الدولة ـ بالتقدم والنمو ـ لم تعرفه الحياة العامة للعهود التركية . لأن هذا الابتكار هو ثقافة واضحة تضيء طريق الاصلاح والتحرر والنمو امام النفسية الشعبية . يمثل هذه الفعالية ، الحس العميق بالحاجات الاجتماعية ويرسم التأمل المناهج لتحقق هذه الميول خارجياً في المؤسسات العامة .

فمن اين لهؤلاء العلوج البلداء هذا البنيان الروحي الذي يحيا بمشاعر الود مزدهراً في مجتمع ليس هو الا عضواً من دمه فاذا لم يكن لهذا المعنى الذي نعطيه لكلمه (سياسة) وجود في التقلبات السياسية المختلفة في بلاد العرب آنذاك، فما تكون الثورات الشعبية الباقية الا رد فعل للنفس ، التي تضيق الظروف الخارجية في وجهها فتحاول ان تشق طريق الخلاص بحركة مسلحة سريعة .

كان لا يمكن اذن في ذلك الجو ، الذي تسيطر عليه السياسة الدينية وتفسده الكتل الاقطاعية المادية . حيث سؤال الكفاءة الروحية او الثقافة اضحوكة في بيئه مشابهة ـ ان نفتش على شخصيات مماثلة لتلعب دور المنقذين او ان نظفر بين هذه الكتل الاقطاعية العمياء بالفرد الذي يهب حياته لمثل امته .

انتهت الحياة الى فوضى مخربة ، لا تعرف الا تآمر اعضاء الدولة على

مصالح الجمهور بالاستبداد ومن الاقطاعيين على القيم الشعبية بالكذب والتزييف.

غير ان البلاد العربية ردت على تلك المظاهر بثورات متعددة ومقاومة تستهين بالاخطار كانعكاس لمساوىء الحكم ووقع اوامره على الوجدان الشعبي.

لقد توالت الادوار وهذا الوضع الزائف الذي انشأته اقدار الساطة العثمانية يترك في الخفاء وتخف وطأة القصد والتعمد في مسالك الطبقات الطورانية العلنية لدعمه وازيد: ان غير الموظفين الحكوميين من هذا الخليط قد بدأو يعيشون حياتهم من وجهة نظر الجمهور العربي.

فحملوا معول الهدم وعاثوا في تخريب البنيان الاجتماعي والروحي الى الابد. او بعبارة اخرى: تقريب هذه الشرازم الاجنية من حياة الجمهور لتتبنى حل مشاكله من وجهة مصالحها الخاصة متسترة بالعلاقة الدينية والاجتماعية لتقود حياة المجتمع الى مصيرها المحتوم.

وقد دلت هذه الغريزة اربابها على اساليب المكر والكذب بشعور وبدون شعور مفتشة بذكاء محدود أيقظتة النفعية الشخصية في المداخل البعيدة الى حياة الجماهير لتندس الى الابد في ضميرها المعطل فتزيف اعلى تجلياته وتنحدر به الى اسفل مبادئه.

وهكذا تظل النزعات قائمة في اصنام بشرية مزيفة لمجتمع من المجتمعات

عندما تكون مقدمات حياته قد آلت الى تقلص الشخصية فيه . او

بعبارة ثانية :

عندما تجف الحياة في الفرد، ينكمش على نفسه لتضمر ميوله الانسانية، فتحبس في قمقم انانيته المظلم ، وعندما تنتهي وحدة المجتمع باجزائها - اي الافراد - يصبح الجيل الاخير عبئاً ثقيلا على قيم الاجداد وخطراً على مستقبل الاحفاد ،

واذا كان في العلم مفتاح الى انارة مجتمع مشابه تحت رحمة الاستعمار الداخلي والخارجي فان هذا المفتاح كان بيد الحكم التركي ! ولكن لنتساءل :

كيف يمكن ان تشيع الثقافة بين الجماهير الشعبية ؟

- اذا اشاعت الدولة التعليم باكثار عدد المدارس وتسهيل النفقات المادية !

او اذا توفرت الحياة الاقتصادية للجمهور اندفع للتعليم بأي ثمن !

يتوج هذين الطريقين رعاية الحكومة لمعاشر المتعلمين بتسليمهم مقاليد الحياة العامة :

ولكن اين كان العدد الكافي من المدارس التي تسمح بنشر العلم بين الجماهير ؟

واين هذا التشجيع ، بل اين الثروة واليسر المادي اللذان يسمحان

بالانصراف للعلم . ؟

بل ما هي المكافأة المعطاة لمعاشر المتعلمين المدرسيين والموهوبين والمبرزين في المناسبات الاخرى ؟ ؟ ؟

يضحكني كما يضحك سواي ، عندما نتذكر مواقف الحكم التركي في الميدان الثقافي . اذ لم تضيّق دائرة التعليم العام بتقليل عدد المدارس والمساعدات المادية . . . بل كان المتعلم مهدداً بالاخطار الفجائية والوشايات القاتلة في كل ساعة . فهو يعيش في جو نفسي مضطرب على مصيره كقاتل تلاحقه اشباح جريمته ، يخنق مواهبه لو استطاع تحملها .

لقد كان الجمهور يشعر ان المتعلم - على الرغم من حاجته اليه - مهدد كما - قلنا - بل ان كل بروز خطر على صاحبه . في حين كانت هذه الظاهرة الاجتماعية النبيلة ، والمهمة المقدسة - اي احياء التعليم - وقفاً على الطبقه الاقطاعية التي تحدثنا عنها حتى الآن ،

هي طبقة الولاة من باشاوات وباكوات والموظفين المتقاعدين وملاحق الرتب (الشريفة) التي منحهم جميعاً السلطان اللقب والثروة وعززهم بنفوذ حكمه قيادة حياتنا الاجتماعية .

خرجت معاشر المتعلمين من هذه الطبقات الدخيلة خبيثة لئيمة بعدان كشف لها العلم قناع اصلها ووضعها الاجتماعي .

فاصبحت تسيّر غرائزها اللئيمة بضوء الاساليب العلمية كل يوم من جديد .

لقد اعطاهم التعليم قيادة المجتمع بصورة طبيعية فالاستيلاء على مصالحه وجهزهم باسلحة خطيرة تشتق عن هذا الاصل الغريب الذي لفظهم هي: اخلاق (التنكر) (والتلون) (والتزييف).

فظهرت هذه الطبقة في مختلف فروع الحياة العربية لتوجهها في مصلحتها السفلى، واعطتنا حقبات الزمن المتوالية ثمرات فعاليتها المميتة، ثم بدأت تتوسع في حلم المستقبل لترسم خطوط سيطرتها العائليه باطمئنان وثقة وتأكيد.

. . . . .

ان الثروة عنوان الشرف، والوظيفة سبيل التحكم والتشفي. ففي هذين المسربين بدأت تحفر هذه الطبقات تحت دعائم امتناوتكمن في كل شق بصبر وترصد لتخنق كل فعالية شعبية تحريريه.

فلنلخص اذن فصلنا بالكلمة الاخيرة:

ان قيادة الجماهير الشعبية العربية في حياتها العامة قد افرغت بقوالب مصالح الطبقات الاقطاعية الغربية لتصل هذه القيادة بسفينتنا الى ساحل الندامة.

. . . . .

٢ كانون الثاني سنة ١٩٤٦

الفصل الثالث

«.. الطهارة هي المعرفة ..»

ـ رسائل اخوان الصفا ..

الحياة العلمية :

اذا كانت الحياة العلمية تابعة في مجتمع ما الى السياسة والاقتصاد، فلا عجب اذا حرمت البلاد العربية تحت ظل السلطة التركية من نصيبها العلمي. لأن نمو وذيوع العلوم كان ولا يزال سوطاً يوقظ الطبقات الشعبية الغافلة ويرفع مستواها.

ولكن الحكم الديني التركي كان عدا عن قدريته المزمنة فهو حكم شخصي استبدادي غريب. فليس الدولة والشعب الا آلات صماء بيد السلطان لا شخصية لها.

ولم يكن حظ البلاد الاسلامية، باوفر من حظ العرب، عامة بالتقدم العلمي والحرية الاان اوضاع بلادنا هي هدف ابحاثنا الحاضرة.

.....

اذا كان العلم يزيح المخلفات المتراكمة من المعارف والعادات عن الذهن العامي، ويعيد الانسان الى ذاته ليحيا حياة متضامنة مع عصره، فأن هذا النمو الذهني اكثر ما يخيف الدولة الدينية المستبدة. وهو خطر دائم يظهر من بلاد العرب يهدد نفوذ الاستعمار التركي

غير ان الموجة العلمية لم تتوسع بطبيعة الحال، بل بقيت مرهونة ـ كما قلنا ـ بنوايا السياسه العليا. لذا ندر عدد المدارس كما ندر عدد المتعلمين حتى قيل ان عشرة قرى تعاونت على قراءة رسالة فلم تظفر بفك الغازها لان اهليا كانوا جميعاً اميين.

غير ان عدد المدارس لا يعني وفرة المتعلمين ايضاً. لأن هذه النتيجة تابعة لتعميم التعليم كما هو تابع لما يسمى (بمجانية التعليم) بدرجاته المختلفة.

هذه المراحل المتعددة، هي سلم بدائي لذيوع التعليم في العالم كما كان واجب الوجود لازدهار الحياة العامه. غير ان عقبات اخرى تكمن وراء ستار السياسية التركية: هي الكتل الاقطاعية الخبيثة. التي تسكن المدن واذنابها. اذ كان يمكن ان تحصر هذه الطبقة اللئيمة في اطارها العائلي ان لم يكن حرية التعليم فجميع الثمرات التي يعطيها التعليم بمراحل في مجتمع مشابة لانها كانت اقرب السلطات الى الحكومة المسيطرة نسباً وسياسة واناحت لها ثروتها المادية الكبرى ان تقطع مراحل التعليم العليا في البلاد الاسلامية والاوروبية كما سمح لها نفوذها الجنسي ان يفضل ابناؤها الاخسا ابناء الطبقات الشعبية العربية في عناية الحكومة واقتطاف ثمرات تعليمها المختلفة.

لا جدل في الضغط القاسي و المضحك معاً الذي عانته طبقة المتعلمين العرب على اقل درجة كان تعليمهم في العهد التركي. لأن مسحة النباهة المادية كانت ميزة وتهمة في آن واحد، تكفي ان تهدد صاحبها بخطر مخيف

مصدره الحكومة .

لأن حياة كل دولة دينية (والعثمانية) المستبدة مرهونة بانخفاض المستوى العقلي والاقتصادي لجماهيرها الشعبية .

افما ضاقت صفحات التاريخ بتعداد الامثلة والحوادث الدالة على هذه السياسة الخرقاء والمضحكة . ؟

فاذا كان التعليم مباحاً او ممكناً او مأمون العواقب او مثمراً فان كل هذه الامكانيات المشجعة كانت وقفاً على ابناء الاقطاعيين الاتراك والموظفين المتقاعدين منهم واذنابهم الجنسية .

تدريجياً : تملكت هذه الطبقات وظائف الدولة والمراتب العلمية . فاستعاضت السلطنة العثمانية بهذا الخليط الهجين عن تصدير موظفين جدد من بلادها . وهكذا تيسر لهذه الطبقات ان تمتص فعالية شعبنا فتضخم اكثر من سواها .

ان كل ما يمكن تصوره من سيء الحوادث وخائن الوقائع ، من عوامل الارهاق والتقتيل والنفي والسجن والتعذيب والافقار . . . كان دائم الحدوث وممكن الحدوث في كل لحظة بين الطبقات الشعبية العربية .

. . . . .

لننتقل الى ميدان آخر :

اذا كان العلم يكشف مباني الحياة والطبيعة ، ليعيد الانسان الى نفسه بستوحي انظمة متلائمة مع منطق علومه وحياته الداخلية ، فما هي النتيجة

الثقافية التي اعطاها التعليم بين معاشره المذكورين .

استيقظ المتعلم الجديد على غرابته الجنسية عن المجتمع الذي يعيش فيه فاخذ يعيش شعوريا مقتضيات اصله . لأن الدوافع الداخلية العمياء التي عاش في تيارها لئيماً متنعاً على مشاعر فضائلنا القومية المخلصة استخلص منها منهاجا يعمم اخلاق الاثرة والمؤامرة بين الطبقات الشعبية .

لقد اصبح العلم اذن آلة صماء بين المتعلمين المذكورين لا تستعمل الا في دائرة المنفعه الشخصية . فماتت الصلة بين الفكرة والنفس الداخلية بل قست الشخصية وجزأت افكارها التحارب مجتمعها بلعبة التعليم الخطرة . ولهذا نذر بل استحال ان اعطتنا او تعطينا تلك العهود المعتمة بذرة نهضة عقلية سليمة .

لأن كل انقلاب عقلي يعني :

استجابة النفس لطبيعة الفكرة . فاذا تمنعت ، جفت الافكار ، واذا دارت حولها ، استعملتها تجارة في الحياة اليومية . فكل المتعلمين نجدهم ولا يزالون اما تجاراً بافكارهم . واما افكارهم تتحجر في نطاق انانيتهم .

هذا الحكم يشمل شعبنا نفسه . من الذين ماتت دوافعهم الداخلية او تسممت ، فضمرت شخصياتهم بعد ان ثقل عليهم وزن التعليم . اقول ذلك ولا اعلم الساعة التي تبتديء فيها فعالية تومنا الروحية بخلق ثقافة جديدة في العصر الحاضر .

٤ كانون الثاني سنة ١٩٤٦

الفصل الرابع

ما بعد «١٩١٨»

« ودخل يسوع الى هيكل الله واخرج جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل وقلب موائد الصيارفة وكراسي باعة الحمام وقال لهم : مكتوب، بيتي بيت الصلاة يدعى وانتم جعلتموه مغارة لصوص . »

« انجيل متى »

اكتب عن امتنا تحت هذا التاريخ ، ليس لانه بالنسبة الينا حد فاصل بين حياتين عميقتين ، بل لانه عنوان جديد لقوة سياسية جديدة قبضت بيدها على البلاد العربية وهي : القوة الاوروبية .

اذ اندحر الحكم التركي بعد الحرب العامة لتحل محله قوة اقدر على فهم الحياة الحاضرة . ولكن حياتنا الداخلية لم تتطور مع الانقلاب العظيم الذي تم في حياة الامم الباقية ، لانه ليس لاسس الحياة الحديثة جذور سابقة في بنياتنا النفسي .

مع ان حادثا جديداً قد طرأ : هو اتصالنا المباشر بالامم الاوروبية التي أمت بلادنا نتيجة لتضخم الشعور القومي فيها وضيق اراضيها .

فهو اتصال على الرغم منا بدأ يغزونا بفلسفات تحمل صفات مصادرها الخاصة وتعاكس في منبتها طابع الحياة العربية الحاضرة في النظر والتقدير

فكانت صدمة قوية من فكر حر ، غني ، توجه الى اشكال جافة لحياة فقدت معناها وتوقفت قدرتها عن مجاراة الظرف العالمي

في وقت لايوجد به في البلاد العربية تيار حي - ولو تقليدي - تحمله فرديات قوية يوقف او يعرقل التغير المنتظر للتلاؤم مع اقدر مراكز انسانية على البقاء والاعطاء .

فالعمل الديني الذي مازال اقوى مايقود السلوك ويعطي الاشياء قيمتها في بلادنا قد ضمر من عقيدة موطدة متماسكة في الاصل مع حرية الحياة الى اشكال جافة تقرض الفرديه . اي اصبح عادة وجدلا .

لكن على الرغم من سعة النفوذ السياسي الذي بسطته اوروبا ، وتعميم منتوجاتها ، فان هذا لايوهمنا ان تبديل حياتنا كان في صوريته الاجتماعية والفكرية من طبيعة المؤثر نفسه .

فاذا كانت الاوضاع الاجتماعية في المظاهر تنتقل بسهولة من امة الى امة ومن طبقة الى طبقة ، فأن الفكر يعتمد على الشخصية والتأمل في الدرجة الاولى .

ولما كان وجود الشخصية نادراً بالنسبة للامة العربية في عهودها الحاضرة فقد تأخر الانقلاب الفكري بالقياس الى التبدل الاجتماعي الذي سار سيره بسرعة مطردة .

ولكن تمثل المظهر بعمق ليس باقل صعوبة من تمثل الفكرة ، لان الحياة الحديثة وجهة نظر واحده في آفاقها . فاصبح مجتمعنا بدخول عناصر

صعبة و كثيره على وحدته القديمة يمشي مشية المتثاقل الذي يحاول اخفاء علته . وانما عبثاً هذه المحاولة لضعف قابليته على تمثل هذه العناصر ، فاشتراكها في مخططه الاصلي .

قلنا ان الفكر يعتمد على الشخصيه الطليقة .. واعني ان الحياة الداخلية تنطوي على المعنى الذي تحققه الثقافة . فاذا شوهت هذه الحياه الداخليـة بعوامل التصالب الجنسي وانحراف الشعور او تسممه فأن الشخصية تتيه في بيداء الانتخاب وتضل هدفها . فهي لا تعجز فقط عن التقدم بـل عن الفهم الذي يبني الشخصية ، ولهذا لا نكاد نجد المذهب الاوروبي نفسه في ذهن المتعلمين محافظاً على جدته ومزاياه . بل لم يبق من آثار هذه التيارات الفكرية الا الضجة القائمة حولها ، بعد ان ترسبت ممسوخة في عـدد من الرؤوس الميتة اشبهها باريج غابة يمر على جيفة في تلك الغابة فما تحمله الا نتن رائحتها . والحق ان الافكار التي وصلتنا من العـالم المثقف المتلائم لم يتركها المتعلمون حتى حملوها رائحة ارواحهم .

ولـكن هل معناه الانصراف عن الثقافة ؟ اقول كلا ـ طبعاً ـ او : هل الاقبال على الثقافة الاوروبيـة خطر ؟ كلا ! بل هو سبيل الخـلاص الوحيد ضمن الخطوط المرسومة .

لان تصلب الاوضاع التقليدية وجفافها من معناها يدفع كل فرد في اتجاهه لاعلان حرب على نظمه واخلاقه . فلنجرب ان نمتحن المجتمع العربي

على نفس الاسس والتي قادت دراستنا لحد الان .

قلنا ان استيلاء قوة سياسية جديدة على البلاد العربية ، لم يكن في الحقيقة انفصالا بين عهدين كما لو قيل : عهد الظلام وعهد النور . بل ليس ماستدعى اي استقصاء في هذا السبيل . اذ ان القوة السياسية الجديدة ، بدأت تتفهم مباني الحياة العربية لتحتل مراكز الضعف فيها وتوجه الفعاليات العامة لخدمتها . ومن الحماقة المضحكة ان يكون في انفسنا ظن يوهم ان هذه الدول الاستعمارية تحمل الينا ثقافة او تحريراً او - على الاقل - انها تريد نشر ثقافتها في بلادنا بالمعنى الحقيقي . لان كل مافعلت هذه القوى الاستعمارية ان اعترفت ، بل ثبتت مشروعية منطق حياتنا التقليدي وتعاونت سياسياً واجتماعياً مع الطبقات الاقطاعية المسيطرة لمقاومة التفكير الحديث .

من هي هذه الطبقات آنذاك وحتى الساعة الاخيرة ؟ ان جوابنا بارز جداً في الصفحات السابقة وسيبرز من خلال الحوادث الاتية في اعمق اسف ممكن .

ان تدهور شعب من الشعوب لا يقع - طبعاً - دفعة واحدة الا عندما تتفتح ثغرة في بنيانه ثم تعقبها ثغرة اخرى حتى يتداعى البنيان وينحط الى الارض بفقدان التوازن بين مقتضيات الظرف واستجابة غرائزه البانية . فاذا استعادت امة من الامم عزيمتها لتشترك مع المتسابقين ، دللت هذه

الامة على سلامة نفسيتها وارادتها الحية .

غير ان الوقائع الحاضرة في جميع اقطار امتنا تدلل على انحطاط بعيد مشترك في عناصر الحياة .

لنعد الى هذه العناصر الحية لنجد ان الدوافع الداخلية التي تعين سلوك الفرد الخاص قد تحددت على توالي العقبات ان تظهر في الحياة الاجتماعية وبالنتيجة : قد استعبدت المظاهر السائدة الدوافع التي تتحجر عبئاً ثقيلا على حساب الحرية الفردية . اذ انكفأت هذه الدوافع الى مجاهل الضمير لتشكل نقطة الضعف في بنياننا النفسي .

فاذا كانت المظاهر الخارجية هي القدر الذي يحدد نفسية الفرد الاجتماعي فان مجال الكبت ليس واسعاً فقط بل معناه : ان الفرد يتدهور الى قاع الانحطاط

ان هذا الانحطاط يبدو لنا ذا معنى بارز جداً . افليس اذن هو : فقدان المثل العليا في الحياة الواقعية . تلك المثل التي تحدثنا عن تحققها في المجتمع القومي وانها ابداع الشعب الواحد ، تعبيراً عن الغرائز الحية البانية وصفاء الوحدة النفسية .

ولكن هذا النمو النفسي الذي يتجلى في حدة الحساسية ونباهة الشعور لا يمثل القيم العليا الا في حالة الصدق ، وهو ما عبرنا عنه : بالاتصال بين الحياة الخارجية والحياة الداخلية .

فعندما اضاع هذا الشعور صلته بحياة الغرائز العميقة ، فقد قدرته على تمثيل القيم العليا ثم هبط الى حدوده الدنيا ، فاصبح يعيش الفرد بالتضارب

مع هذه الغرائز حتى تخربت مملكة النفس وتناهت الى الانانية .

ان الشكلية العقيمة التي يعيش فيها شعبنا العربي في مناحي حياته ليست الا توسع المظاهر الخارجية الغريبة وثبات التقليدية منها على حساب حياته الداخلية في العصر الحديث . فاذا عجز هذا الشعور يوما عن يقظته ليتصل في حياته العميقة فما ذلك الا ان هذا الشعب ليس جديراً بالحياة .

نقطة اخرى : ان المظاهر الخارجية التي تعيش - كما قلنا - على وجدان الفرد العربي ليست الا اقداراً فرضتها الحضارة الاوروبية الحديثة او توالب حياته الابتدائية الدينية . وكلا المظهرين ليس الا مظهراً واحداً بالنسبة لاثره . لان مدنيتنا القديمة التي اندثر حملتها منذ زمن بعيد وبقيت قوالب جافة ، لا تستطيع ان تحيا ابداً بالعواطف الابتدائية التي رافقتها . لان الحياة الحديثة قد ركزت دعائمها على عناصر نفسيه جديدة متمثلة بنماذج قوية جداً . فهي لا تقوى ابداً على العودة ، كما ان مشاعرنا الداخلية لم تستيقظ بالاتصال مع ذاتها لتتمثل بقوة العناصر الفكرية المتجددة ، ولم تستطع الهرب منها . فكأنما تحيا بالتماس مكرهة على قبولها ، لتعبر هذه العلاقة الخارجية عن « السطحية » التي تسود منتوحنا الفكري وافعالنا .

كما ان فوضى مقاييسنا وحلولنا لتعبر ايضاً تعبيراً عن ضلال الشعور الذي قطع علاقته مع حياته الداخلية ، فتاه بين الاهداف والرموز

اني لاشبه عقلية امتنا بلعبة الاطفال الدارجة :

حينما يعصبون احدهم ويحال بينه وبين رؤية رفاقه . ثم يبدؤون حوله

الصراخ والنكز فيلحق بهم ليظفر بواحد يعصبونه ، وهو كلما سمع صوتا او تلقى لكزة طلب صاحبها فيهاجمه الثاني فيطلبه وهو يظن هدفه في آخر صوت سمعه .

هذه الحالة هي اصدق ما يقع في امتنا : حيث عصبت بصيرتها وبدأت وراء الاصوات المتتابعة لتمسك بمخلصها ، فهي بحالة يرثى لها من العجز والتشويش .

ان المفكرين والاحزاب يعتبرون منافذ مباشرة لهذه الحاجة الداخلية التي قصر الجمهور عن تعيينها . وهي تبديل اوضاعنا لنلحق بالظرف العالمي ونشترك بالحياة الحديثة . وما نتوقف عن الاستجابة للاصوات المتواردة ، لانا نعبر هكذا عن ارادة الخلاص

غير ان هذه المنافذ ـ اصوات المفكرين ـ التي تجتر الحلول وضجات الاحزاب السياسية القائمة لا تعطينا تعبيراً ناضجاً عن هذه الحاجات . لان الحلول المعروضة تحمل سطحية التفكير وضلال الاتجاه .

لان تفكيراً ما ، تعطيه شخصية ، لا تمتد عناصره ولا قيمة له الا بالعلاقة مع البيئة وصميمية التفكير في الشخصية . اي على الشخصية ان تجسد الى حد بعيد افكارها المعروضة .

والا فمن اين تأتي صحة المعرفة ؟

لان المعرفة الخارجية ـ بالقياس ـ لا تنفذ الى اعماق الحاجات كما لو انبثقت عن البنيان النفسي والاجتماعي مناهج وحيدة واخيرة

ان ضلال الافكار المعروضة يعود الى ان غموض الشعور يجعل حياتنا الباطنية مجهولة من قبلنا ويحدد معرفتنا العليا . ولا غنى لنا في الافكار المجردة لانها تتجمع وتضخم على حساب قابلية التمثل الداخلية ، كما تتجمع في معدة المريض الاطعمة فتقتله التخمة .

ان تجمع التعليم عند الفرد الضعيف ، يدفعه في النتيجة اما للحلول القاتلة ، واما للمتاجرة بافكاره . وفي كلا العمليتين تعيش الشخصية مزيفة على الحاجات الاجتماعية .

بلى ! ان معرفة هذه الحاجات لكفاءة خاصة مبدعة : ـ الاحساس العميق بالروابط المقدسة بين الشخصية وامتها ، كما بين الام وطفلها . هذا الحس الداخلي الصوفي ، الذي يجعل صاحبه في غنى عن المعارف الضخمة وهو بذاته فعالية واضحة تطلب التبديل .

ان هذا الاحساس العميق هو صلة بين الانسان ومجتمعه . لان افكاره تجلى على آفاق حياته كايحاء لا يرد . وهذه الصلة المتينة بين الفكرة والذات المتأججة ، تحمي الفكرة من الضلال وتحرس اخلاقية الشخصية .

اذ تتجلى كل فكرة عندها كوحي الهي وقانون اخلاقي فرضته الحياة نفسها . وما هذه العلاقة الداخلية ، الا ما يعبر ظهورها بكلمة (احترام الذات) التي تبني العلم على الشعور الاخلاقي . فتصبح حياة الفرد ملحمة لنصرة افكاره . فهو مكافح واما ظافر وهكذا نحل سؤال الفقر الروحي والدعوة الى الفضيلة .

فاذا كانت جمهرة المفكرين تعيش حياتها بضلال الاتجاه او تجارة الافكار فما علينا الا ان ننفض اليد منها طالما ان اعماق الحياة الشعبية العربية لم تعد تطمح بعد الى اليقظة .

ها نحن نتقدم خطوة ثانية :

ان فعالية الجمهور قائمة ، وفي اطار الانانيه ـ كما تحدثنا ـ لا تستطيع ان تميز بين الحلول المعروضة بالتحليل والتأمل . غير ان وحي هذه الحلول يقع شائكا وثقيلا على وجدانه فينصرف عنه .

وهذا هو السر في اخفاق جميع التكتلات الحزبية وابواق الدعوات المصوّتة لحل ازمتنا القومية . على الرغم من هبة الفرح التي تعمّ حينما يعلن عن تكتل ما .

ان عقم الحلول المعروضة ان لم ينبيء بنوم الشعور او ضلاله فله دلالة اعمق . اي : اذا كان الجمهور يعجز عن المعرفة والتمييز ، طالما شعوره في اطار الانانية والقلق ، فان جميع هذه المنافذ الظاهرية لحاجاته ، الا وهي الاحزاب السياسية وافرازات المفكرين هي وحي خارجي مطلق وتآمر على مستقبله .

فكل تكتل له ظاهر القوة والنجاح والجمهور ما يزال ساكنا يعزى نجاحه بالتأكيد لعامل خارجي يدفعه اما على حساب مبادئه الاصلية . لان الاوروبي الذي يحمل الشعور الواضح بحياته ، يتمكن بالمعرفة الوضعية ان يبين عن بعد حاجات الامم الباقية ومستقبلها . وما هذه الاحزاب المتدافقه

الايده الخفية ـ مباشرة او دون مباشرة ـ التي تعرقل هبة الشعور القومي او تزيفه وهي تعيش على المناسبات المتقطعة .

وفي الحق : ان انصراف الجمهور عن هذه الاحزاب على تعدادها وحرمانها من الثقة والقيمة الاديبه لاقوى دليل على انها ليست جسراً الى مرحلة انبل من الحياة .

اقول : تبدأ حياة هذه الاحزاب على عكس ما يحيا الكائن الحي . فهي كبيرة في مولدها ، ثم لا تلبث ـ بينما تعلن عن نفسها بفعل ما ـ ان تضمر تدريجياً او تتوارى فجأة بعد ان تعلن لوحتها على المسرح السياسي . فهي لا تكاد تتألف حتى تموت .

اضف الى ذلك : هذا الموت السريع دليل على قصر جذورها في حياة الجمهور الباطنية . واذا احتفظت احدى هذه التكتلات ببقائها في بلدة من بلاد العرب فانها تعيش محرومة في الحقيقة من النفوذ الادبي والثقة العميقة فبقاؤها مرتهن بقوة العوامل المادية التي تدعمها وبمقدار ما تستثمر فقط الضعف في بنيان الجمهور وتثبتها لتنمو عليها .

لان الحوافز الادبية الشعبية لا تنمو الا في مركز نفسي يستقطبها فاذا هبت ـ بالتزييف ـ ثم ضمرت مرة لا يمحى الاثر الذي انطبع على ساحة شعورها ، كما لا ينمو ، بل تبقى اصنامه معلقة . لان رخاوة الحياة النفسية الشعبية لا تؤهل الى عمل تهديمي ثوري .

وهكذا : نرى قادة مجتمعنا العربي لا يحيون كما لا يموتون . مما يفسر

وضع الاستخفاف والهزء الذي تبديه طبقاتنا لهم ولادوارهم.

لنتقدم خطوة اخرى :

اذا كانت هذه الوقائع اقل صراحة مما يجب ان نعلنه امام انفسنا لنعين امراضنا ، فاننا نصيغ قولنا بشكل آخر :

ان قيمة الشخصية تبرز في ميادين الحياة بمقدار ما تستطع ان تشق الطريق امام مجتمعها نحو امكانيات تقدمية جديدة اقدر من سواها. ولكن هذا الدور الرئيسي لا يتسنى للشخصية الا اذا كانت نموذجا بشريا حيا يجسد افكاره في اعماله . اي تعيش بشعور ضميرها ـ كما قلنا ـ

من هذا الباب ـ التجسيد ـ تدخل الشخصية ملكوت الزعامة الحقيقية . لذلك كان بدهياً ان نستخلص ما يلي :

انه لا شخصية ، ولا حزب يعيش في تيار الحياة المزيفة الحاضرة ـ على حساب القيم والمثل الشعبية التقليدية لامتنا ـ يمثل ولا الى احط درجة (الا من وجهة نظر الحاجة الاستعمارية) دور البطولة الحقيقية لتجسيد ميولنا ومشاعرنا النبيلة .

ان احياء امة لا يستند الا الى يقظة شعورها النفسي على حياتها الداخلية . لذا ، فالدعوات المجردة ، والمواعظ الخطابية ، من ذوي الحناجر الضخمة والنوايا الحسنة .. لا تعدو ان تكون كلها نباحا مضحكا وعبثا جنونياً ، اذا لم تستند الى احياء غرائزنا المشتركة على ضوء الشعور النفسي الموضح لتقوية الاحساس الخلقي والتفكير .

وقد حللنا في الفصول المتقدمة اصل الفضائل الاخلاقية وخلاصته : انه بدون يقظة حياتنا الداخلية لا معرفة ولا حرية .

قلنا ان الفكرة تعيش على حساب النفس عند جمهرة المتعلمين ، ويعني المعرفة عندهم التجارة بالافكار . غير ان الطبقات الشعبية البعيدة عن موجة التعليم تحيا حياة متماسكة اكثر ، لا تخلو من خطر جسيم .

اذ بينما تتراخى روابط الطبع في بنيان المتعلمين لتلعب فكرته دور الثعلب ، نجد ان طبقات الفلاحين والعمال في الارياف في اتجاه الطباع الخارجية . حيث تتحدد الشخصية بعدد من المزايا والفروض المسلكية تشكل طبعاً متماسكا الا انه يعيش في الحقيقة على حساب القوى الذهنية لانه اذ تتصلب العناصر النفسية لتشكل الطبع المحدود ، تبقى الفكرة بعيدة عن الحياة المنتجة او تصبح عبداً لاشكال العقيدة الدينية الظاهرية .

فاذا بدا لنا الشعب (متعصباً) ـ كما يقال ـ على شتى المعاني فلانه يعيش على مفاهيم قليلة العدد ضيقة اكسبها الزمن قوتها الثبوتية ، ما تلبث ان تنهار حينما تغزوها معابير جدلية ما في اول صدمة . وما تلبث ان تنهار تبعاً للقيم الاخلاقية التي عاشت في حماها .

ذلك لان اخلاق امة من الامم الابتدائية لا تعني لحد الآن الا الاوامر الدينية المطلقة الصحة والمفروضة . فاذا تهدمت عقيدة الفرد الشعبي او ارتاب في منطقها الغيبي فليس معناه الا الانحدار في الفوضى السلوكية

السطحية .

وهكذا تتراوح الحياة عند امتنا بين قطبي : المعرفة ذات النهاية المادية والخلقية الدينية ذات النهاية غير الاخلاقية .

. . . . .

وقائع خاصة :

ان جمهورنا العربي لم تنهض حياته الى افق الوضوح والتأمل الذاتي . لذلك كانت فعاليته في اطار الغيبية والتقليد . لانه ما من نظر عقلي مفكر الا وهو منبعث عن وضوح الشعور التأملي في الحياة الداخلية . وكلما تحرر هذا الشعور واتضح ، تكشف حوادثنا امامنا وتتحلل . عند ذلك فقط : الشخصية تفكر وتعقل ، وما التفكير الا تفكيك الالغاز والاوضاع المتشابكة المبهمة .

ولذلك فان تقدماً يناله مجتمعنا يبقى مرهونا بقوة ما تجسد شخصيات بشرية تبرز في هذا المجتمع وضوح حياته المضمرة .

ان ارتفاع وانخفاض ، بروز او ضمور ، وضوح او غموض الحياة الداخلية ، هو الذي يعين مستوى النظر للمجتمع وتقدمه . لان الفكرة المجردة ليست الا رمزاً مشتقاً ابداً عن النفس وحالاتها . وما لفكرة اي سبيل الى احياء امة او تقدمها الا بمقدار ما تعبر عن حاجة نفسية عميقة لها .

وقد علمنا التحليل التاريخي : ان ظهور امة على الحياة الدولية كان لا يحمل معه اكثر من عدة افكار بسيطة ، ولكن سيطرة هذه الافكار

والمفاهيم التي عبثاً يمكن ان تستخدم منفردة لانهاض امة اخرى ، كان لا يمكن ان تبدو امامنا او تنجح الا من وراء الحيوية التي غذتها . او بعبارة دينية : بقوة ما تجسدت على وجه الارض .

ومنه ينتج : ان نهضة او ازمة شعب من الشعوب ليس بتطبيق او رفض نظام معين ، وانما ازمته هي نفسية محضة وبمقدار ما ترابطت الافكار وانسجمت لتعبر عن هذه الحاجات النفسية الحية . ونحن نقول ـ كجميع الكتاب النفسيين ـ حتى المذاهب الاجتماعية الحديثة : ديموقراطية وفروعها: شيوعية ـ فاشية ـ لها اسسها العميقة في الحياة النفسية . كما ان كل الافكار السائدة في عصر وعند شعب هي رمز لحياته الداخلية او ان تنكر هذه الحياة انكاراً مطلقاً

لقد رأينا في قسم من دراستنا ـ وكنتيجة للمبادىء المتقدمة ـ ان الحالات النفسية السائدة تجتذب اليها مفاهيم عقلية متطابقة معها ، كما انها تحدد التفكير الذي يمكن ان يسود في البيئة الاجتماعية وبالتالي : صفات وآفاق الرجال الآتين .

فمدى التقدم الذي تصله امتنا يأتي عن طريق الشخصات التي تنبت في الظرف المناسب لتحيا حياتها الكاملة التي تجسد خفايا المجتمع النفسية .

فاذا تيسرت لامتنا البطولة فهي بالتعاون مع المجتمع ، بل ليست هذه البطوله الا شكل التعاون المشترك .

. . . . .

عندما تتمتع الشخصية بقوة دوافعها ووضاحة الشعور التأملي ، تبني نظرياتها وافكارها بوحي الاوضاع وتجاربها الخاصة . وما من خطيئة ترتكبها ، الا وتكون حكما سابقاً او فكرة دخيلة على حاجات المجتمع . وفيه يلاحظ ان المذاهب الاجتماعية التنظيمية : هي اشتقاق اكثر مما هي كل فكرة مجردة تنفصل عن بيئتها وممثليها .

ان زعامتنا القومية هي اذن : تمثيل حياة نفسية في وجهتيها : الاخلاق والمعرفة .

ما من حقيقة تتحدى هذه النقطة البارزة . فاذا عدنا الى مجتمعنا الممسوخ ، علمنا لماذا يخفق وحيد والرؤوس (افراد المفكرين ..) ومتعددو الرؤوس (الاحزاب) ان يظفروا بثقة الشعب وتقديسه .

ولو كانت عملية (خلق الهدف) ممكنة الحصول على عقلية امة بشكل مغاير لاهدافها العميقة وبالتالي يؤدي لبروز شخصيات تجسد الوضع الزائف فان هذه المقدرة على (التلفيق) يعجز عنها ذكاء رعاع الممثلين ومسوخ البطولة

ان المحاولات التي يفقد رشده فيها فرد ما ، لاكتساب ثقة المجتمع به ، هي غير ممكنة اذا علمنا ان هذا الفرد لا يمس ولا يشرف اشرافا على هذه الاسرار الخفية .

كذلك الاحزاب المتفشية ، حيث يضطلع في انشائها افراد يتفقون على قبول بعضهم - بتنازل كل فرد عن شخصيته لرفع مستوى بلادنا - كما يدعون - قد حكم عليها بالسخرية والموت الادبي منذ وجودها .

والسبب : ان الاحزاب والافراد ليس لها مطلقاً حظ من القرابة النفسية مع المجتمع . لذا ، فمذاهبها الفكرية هي تركيب وتعليم خارجي لا تمت الى حقائق وحاجات المجتمع بصلة عميقة .

فلا النفس ولا قناعها ، هما باي صلة من القرابة تحيا من وجهة الاماني والاخلاق القومية .

ان الصميم المتصلب على ذاته بغرابته وانانيته ، يلتقي والافكار على ساحة الصدف المتدافعة . فيتبنى مذاهب متبدلة يحاول هذا الفرد التعيس بقواه المتعبة ان يصلح اخطاء الامة فينحدر باحلامها الى مهاوي نفسه الآسنة وما تزين له انانيته وحماقته الا انجيل الخلاص لا المسوخية .

هكذا رعاع المفكرين (المتحررين) وزائف الاحزاب المتآمرين يشكون في نهاية انواطهم لماذا لا يقدم قطيع الغزلان النافر كلبا لقيادته .

فانه لا جارحة في مضطرب نفوسهم تحيا الا بالتنافر مع شعور المسؤولية الناجم عن مذهبهم الفكري ، فضلا عن ان احمالهم الكبرى عبء على اذهانهم .

فهل عادت هذه الطغمة الى نفوسها ، لتشق حياة جديدة ذات اهداف جديدة ؟ ام تحملت وقر مذاهبها لتتعزى بالصبر تحت الاحمال الثقيلة .؟

ام ابتدعت نظمها وآراءها بالتجربة والتحليل والفهم لاوضاع امتنا لتحل عقال غموضها ؟

ام تكشفت لها غرابتها الجنسية والخلقية ، فانتخبت انانيتها الاقنعة

المصطنعة والادوية السامة يوجهها الاستعمار الاجنبي الذي لم يترك مذهباً غريباً على حاجات المجتمع الادبية والاقتصادية الا وجمع حوله لفيفا من خسيس المتعلمين

اني لاشبه هؤلاء المصلحين افرادا واحزابا بمهندس زراعي رسم - غيابياً - مخططه لاستثمار ارض عين عليه سلفاً مجاري المياه والسدود وتقسيمات الارض واراد ان يفرض مخططه فرضاً على قابلياتها المختلفة . او كأنما يبتاع احدنا لولده الرضيع ثوب عملاق ليلبسه فيضطر لتقصير الثوب او لمد قامة الطفل .

هكذا والى الابد في محاولات النهوض : طالما امتنا في غفلتها الروحية تعيش على عطالة ذهنها افراد وجماعات غريبة الاخلاق والافكار .

ان جميع المؤسسات الاجتماعية التي تحيا في اطارها ، تقف سدوداً لفعاليتنا الشعبية . فلا الصحافة ، ولا الاحزاب ، ولا المفكرون ، ولا المعاهد العلمية ، ولا الدينية ولا الدولة .. تنفذ الى صميم حياتنا النفسية لتجلي اهدافنا وتحقق رفاهيتنا العليا .

ان هذه الحلول الحية تبتدىء في مرحلة لم تظهر بعد الى الحياة الشعورية : لذلك تطغو اعشاب الافكار الجافة على وجه مستنقعنا ، لان المنابع النفسية تنز حياتها نزيزاً شحيحاً .

فعجباً ! هل ينور التنور - كما حكمت اساطيرنا القديمة - تنور فعاليتنا الروحية ، فيجرف بقايا التقاليد ، وتنقشع الغيوم المتراكمة على حدود حياتنا ، فتنتشي نفوسنا بحريتها وصفائها في العصور المقبلة ؟؟

٥ كانون الثاني سنة ١٩٤٦

« الفصل الخامس »

حياة المثل الاعلى :

« ..على غرارك تنسج »
— مثل عربي —

المثال : هو اكمل صورة تتحقق فيها نزعات الحياة كاملة بشروطها العليا . وبما ان الحياة العملية لا تتسع لتحقق المعنى المطلق ، فان الخيال الفسيح يحمي هذه القيم من الاندثار لتعيش في حياتنا الداخلية ثروة وربما فياضاً بالجدة الروحية .

ولكن الافراد وبالتالي الاجناس البشرية متفاوتة في استعدادها لابتداع المثل او القيم ، ومقدرتها على تحمل اعبائها في الحياة العملية . لانه لا يستطيع فرد من الناس ان يمثل ابداً او ان يتحمل المثال الذي لا ينبثق عن حيوية ذاته . لان هذه المقدرة الحيوية هي (المعادل الروحي الشخصي)له . فاذا تدنت الهمة عن مرتبة المثال او المعنى فذلك يعني ان الرجل سوف يحيا ادنى من مثاله وبالتالي : ان مثاله غريب عنه لا تعادل بينه وبين مستواه .

لان الافق الذي يحيا فيه انسان معين هو فسحة فعاليته المعادلة ومن ثمة الارض الذي ينبت فيها ابداعه . فاذا لم تكن الشخصية معادلة للمثال ،

ضمر المثال عمليا وعاد الى الذهن ليموت فيه . ولذا يقال : ان كل مثال هو صورة بطولية محققة لحياة شخصية .

. . . . .

قلنا : ان المثال معنى يتحقق كاملا في الذهن ، ثم يعد نبغه اعمال الانسان ليدفعه فوق نفسه . فاذا بدت لنا صورة هذه الاعمال تعبيراً ممتلئاً بالمعنى ، استبشرنا ببطل جديد ، وان بدت شاحبة امامنا تنبأنا عن مسوخية البطل الذي يعيش بافكار مستعارة كما لو يعيش جسد ضامر بدم غريب .

واذا تذكرنا مقدماتنا التي تعني : ان مثال او معنى هو ابداع ذات ، لم يكن لقولنا معنى الا انه وحي غريزة سليمة . لان الغرائز البشرية المشوهة - بالمعنى الحيوي - لا توحي المثال الواحد حتى ولا صورته في احلام الفرد لانه من جهة ثانية : اذا كان تحقيق المثال مرتبطاً صميمياً بالفرد الذي يحمله ، فان هذا التحقق الكامل مرتبط اشد ما يكون قوة في المجتمع الذي يحيا فيه الانسان ، ومدى التحقق ليس الا استعداد المجتمع للتعاون العميق مع الفرد للتعبير عن قوة المثل الاعلى . فلا يمكن اذن ان نحصل على صورة لهذا الفعل الكامل بين بطل يعيش في غير مجتمعه .

اذ ان القابليات العميقة في الافراد تنحرف عندما ينتقل الانسان من مجتمع الى آخر . لان سوابق كل ابداع وجذوره وان كانت مغروسة في تجارب الفرد بادية على حدود ذكائه ، الا انها تنمو في الجو الاجتماعي الذي كان ميدانها .

ومنه نخلص : الى ان مثلا عليا : هي تجليات امـة واحدة وليست مبتكرات خلائط الشعوب . لان وحدة المثال الفنية ، لا تبني دقائقها الغريزة المشوهة وبالتالي : تحققه مستحيل في مجتمع متضارب الايحاء ميت العفوية . غير ان مجتمعاً كهذا يخلق انظمة او مصلحة قـد تكون صالحة لبقائه لا هدامة .

فاذا كان ابداع القيم مرتبطاً بالعرق فذلك مما يعطيه النظر المباشر في تاريخ الثقافات العالمية . فان لكل من المثل والعرق معنى واثراً واحداً في نمو الفرد . فكأنهما مترادفان يلتقيان بوحدة روحية لا يعبر عنها .

اذ يرفع المثال ـ بالمعنى المذكور ـ الفرد فوق نفسه بوحيه ، كما ان هذا الشعور بالقومية المجسم في هدف الشخصية هو جناحاها الى الخلود . والا اين نجد تفسيراً لهذه العظمة الفريدة التي يعبر عنها البطل الكبير الا في النفس التي تحمل مثالا اعلى في طريق التحقيق بالتعاون مع الملايين من ابناء جنسها .

اذا كنا ندين بهذه الحقائق فليس الا لنقول :

ان مجال التحقق للقيم والمثل يتكامل او ينحدر في الجنس البشري الذي يحققها . وان حياة مثل اعلى : هي المجال (الحيوي ـ الروحي) الذي يتسع او يضيق في ذات الشعب المجسد . ولهذا ما نزال نحن العرب ـ على غرار اجدادنا ـ نؤمن في الصميم : ان شرائع الانسان الكبير ومثله لا يقبلها مسوخ الممثلين ولا فتات الامم العقيمة . كما ان هذا الانسان لا يختار الا

ما يعبر عن سموه الروحي في حياته .

فاذا حاولنا ان ندخل الايمان الى نفوس الخليط الدخيل بمثلنا المطلقة كنا كمن يحاول ان يدخل حس العفة البكر لنفس العاهرة . لان النفس وان كانت تستعد بدائيا ـ كالارض ـ لقبول مختلف البذور ، الا ان النمو الكامل لكل بذرة مرهون بطبيعة الارض والعوامل الجوية المحيطة .

فاذا نجحنا بعد التمرين الطويل ان نخفف من ثقل الدب وتنشيط حركة رجليه للرقص كما لو كان موضوع تجربتنا ظبياً رشيقاً نتجح ان نعلم المثل الاعلى هذه الجماعات التعيسة المتثاقلة ونحدو همتها الخائرة على التضحية في سبيله .

ان التجارب تقنعنا بعقم هذه المحاولة السخيفة وتعلمنا ما قدمناه :

ان تحقيق مثل اعلى ، يتعلق صميمياً بصلة لا انفكاك لها بالشخصية التي تجسده في مجتمعها . حيث ينبثق المثل معادلا للحيوية الشخصية او لا تحقق ابداً .

اذا آمنا بذلك تابعنا قولنا : ان الايمان بالمثل : ان يترك الانسان مقاليد حياته لدواعي المثل الاعلى ، وبالتالي ان تصبح حياته تعبيرات متواصلة من طبيعة المثل ، دون ان تعرف هذه العملية الجهد الاصطناعي للتدريب والانتقاء . وانما هي استجابة واحياء للدوافع الداخلية .

فعلينا ان نتذكر في الوقت المناسب ، المدى البعيد الذي يفصل بين القدر المشوه الذي اصبحت تبنيه الحكام والنفايات الغريبة المعادية للعرب

في العهد الذي تتكلم عنه وبين الملأ الذي تحيا فيه القيم العليا .

فعندما تجمد المجتمع في قوالب مغالية العهد التركي ورجاله ، اصبح المجتمع اصغر من ان تعيش فيه هذه المثل ، بل اصبحت جنوناً وشذوذاً على حكمه وحدوده .

ان النفس تضمر ـ كما قلنا ـ مثلما تضمر النبتة في الشروط الجوية المايرة لطبيعة نموها . وهكذا اصبحت النزعة النبيلة سخرية وعبئاً على صاحبها

ان سؤال المثل والادوار البطولية ليست سؤالا صميمياً ينبثق عن طبيعة الاخلاط البشرية وشرائعها بالنسبة الى مصلحتها وحيويتها . لانها لا تحمل الغرائز المدعمة بقوة الدوافع وسمو الرغبات ، بل غريزة دابية تجذب المثل الى مقرها .

فمجتمع مشابه ليس مجتمع مثل بل يمكن ان يكون مجتمع نظم واصلاحات مفيدة وعادلة . لانه ليس مجالا لادوار العظمة المثالية .

ان قوة روحية عليا لا تتحقق الا بالتجارب مع الوسط . والفرد المنعزل هو فرد ميت او هدام . فلو وضعنا هذه الكفاءة ـ مثلا ـ في مجتمعنا الحالي لغارت اشعته الحيوية في هذا المستنقع ، كما تمتص الاجسام الرطبة الاشعة الصادرة من مركز انبثاقها الضوئي حتى ينطفيء دون ان تنعكس هذه الاشعة نوراً موحداً على صفحتها المصقوله .

او بعبارة ثانية : لا يرى البطل صورته في مرآته فتذوي نفسه حزينة الى عزلتها .

لنضرب مثلا معاكساً عن العهد الجاهلي :

حيث نأخذ العرب في حياتهم القبائلية العفوية . اذ تسيطر قوانين الحياة والطبيعة

ما هو العربي في ذلك العهد ؟ : هو ابتكار حي بكل معنى الكلمة تعاونت على خلقه الحياة والطبيعة . فحياته ميدان لتحقق اخيلته المنبثقة بصدق عن دوافعه . واذا اعطانا المجتمع الجاهلي اروع المثل الخلقية في تحققها ، فما ذلك الا لان كل فرد منه يحمل غريزة التحليق القومية في احشائه .

ان الشعور المتصل بالغريزة ، يجلي اعمق ما تنطوي عليه الحياة من اهداف . لذا ندر ان يستذل العربي او استهان بنفسه . فاذا مرت شروط حياته ملائمة كانت وقائعه اضافات ايجابية لخلق المروءة والفضل ، واذا قست هذه الحياة كانت الوقائع عفة وانفة . واذا هاجمته كانت كفاحا باسلا تنتصر فيه نفسه للمثل العليا .

ان عراقة هذه المثل في نفسيته اعطت لجميع افعاله طابعاً مطلقاً ضمن الشروط المادية فاذا كانت الحياة مسرحا لحوادث نفسية من طبيعة المثال (المعنى) فنحن في غنى ان نصف هذه الحياة باستعدادها للايمان العميق باطلاقية القيم والمثل . لانها ليست الا مشتقات حارة وصور لحالاتها النفسية

فهو يؤمن بالصدق المطلق لان حياته تمردون ان يلوثها اثم الكذب ويؤمن بالشجاعة المطلقة ، وبالصراحة وبفضائله ... لانها في اصلها ليست الا صدى لدوافعه .

ان حياتنا على الارض ليست الا مسرحا تتحقق فيه الالهية المثلى في اخلاق امم مشابهة وما يكفر عن خطايا الآثمين الا الضحية .

اعود لانهي البحث قائلا : هل تعطينا صفات مجتمعنا التي سادت فيه البشرية المغولية التي قذفت بها اسيا الصغرى وحواليها في العهد العثماني لتصبح فيما بعد العائلات (الاريستوقراطية) المسيطرة ماديا وسياسياً في المدن الارض الصالحة لتحقق المثل العليا كما اعطتنا اياها حياة امتنا العربية في العهد الجاهلي والاسلامي وكما تستعد لتمثيلها طبقاتنا الشعبية بالتربية والدعوة القومية .؟؟

انه لا ارض بشرية ولا شروط اخرى في حياة هذا المجتمع تنبت بذور المروءة والتضحية وبالتالي الاخلاق المثالية . انما اصبح مجتمعاً كافراً بالقيم ، مظلماً ، تقلصت فيه الحياة الى حدها الادنى فاعطتنا الانانية المتجسدة بالطبقات الاقطاعية السائدة باقبح شراهتها .

فما من مثال الا وهو حادم للفرد ينحط الى ما دون حدوده حتى ينتهي بمنفعته الخسيسة . وما في اخلاقية هذه المدن التعيسة الا الادوار والنزوات الطائشة الموقتة .

افيمكن ان نظفر في هذه التاريخية بامكانية حلم بطولي امثل ؟؟

لقد قيل في التاريخ القديم لتصوير انحطاط (اورشليم) اليهودية مايلي :

« انه عندما هبط ملاك سماوي الى اورشليم اضطر ان ينقلب يهوديا بينما يخرج منها »

فهل قسا مجتمعنا الى هذه النهاية فتمنع بانحطاطه ليقبل منا دنسه بينما يخرج منه مستعيداً امله في الطهارة ؟؟

٦ كانون الثاني سنة ١٩٤٦

نتائج

اذا كانت مفاهيم السياسة العليا تضيق وتنقلص لتنتهي في اذهان الطبقات الغريبة الى وحدة النتيجة في اهدافها وتطبيقها وبين مصالح وانانية هذه الاقليات المعادية لتدني آفاق الحياة الى الابد ، فان هذا الفعل الظاهر كان يعبر عن اخلاقية مماثلة في الميادين الاخرى .

انتهينا في الفصول السابقة الى ان مظاهر الحياة العامة هي تعبير عن الميول الباطنية . او بعبارة اخرى : ان الحياة مجموعة رموز في حالة التبدل بجسد غاياتها . غير ان هذه الذهنية الحرة التي تنشيء الاشكال الجديدة في الواقع لا تبني تقف عند حدها المنظور عندما تقف فعاليتها . وما الاسانة في المجتمع الا ثبات الشكل بعد فساده . حيث تقف الغايات عند حد وسائلها وتصبح هدفا في ذاتها . عند ذلك نقول ان الامة سقطت في الجمود واصبح الانسان في مجتمعه كالشجرة التي يبست جذورها في باطن الارض

وهل يعني وصف الانانية الا تقلص مدى الشخصية الذي برهن عنه ـ كما تقدم ـ نظرها الى الثروة المادية كغاية في ذاتها . والا لما ضحت هذه الطبقات المتوحشة اخلاقية الفرد وشرفه في سبيلها .

وان (الوظيفة) الحكومية معيار الرفعة والا لما زحف الفرد اليها واستذل لحفظها ، مما انهى بنا كله الى ان هذه الوسائل التي لم ينظر اليها بعين الاحترام بين الشعب العربي الا لانها وسيلة بارزة لتخفيف الشقاء العملي وتسهيل الحياة . حيث ينصرف المرء الى تربية كيانه الروحي ولان الثانية : هي وسيلة لخدمة المجموع ، قد اصبحت اهدافا نهائية تغرر بالناشئة القومية وتقتل فيهم باكر عواطفهم الخلقية واحلامهم الذهبية .

اصل الاخلاق

الفعل الظاهري هو رمز الدوافع الداخلية . وعلى هذا الاساس اقنا مبدأنا في امتحان اخلاقية تلك الطبقات النفعية بالمقارنة مع اخلاقنا القومية. لان كلمة اخلاق تعني عندنا : تجليات الوحي الداخلي المنبثق عن البنيان النفسي . لا اكثر ولا اقل . واعني ما اقول :

بان الاخلاق العربية الخالصة ليست الا صفات البنيان النفسي المستقيم ، السليم من عطب التصالب الجنسي والعاهات النفسية والمتحرر من الضرورات حتى الطبيعة .

هو بنيان شعب واحد تناسل في اطار قوميته المقدسة وفي ارض محدودة هي بلاد العرب الاولى في غامض الزمان ، تحت قوانين الاصطفاء النفسي والطبيعي .

فأحلل مثلا فضيلة : الصدق ، الرئيسية ونشأتها :

هل الصدق الا مطابقة المظهر مع الدافع اي العمل مع النية ؟ . وضده

الكذب : هذا العمل او القول الذي ليس هو النية .

ونفسياً : هل هو الا الاتصال بين الحياة الداخلية والخارجية، والكذب الا الانقطاع بين الحياتين .؟

فاذا كان هذا البنيان النفسي هو اخراج الحياة والطبيعة ، لم يكن لأحد الانفعالات الا مظهر واحد . كما لو غضب الاسد تقلصت اساريره وكشر ليرد المظهر العدائي الذي حاول الدخول الى نفسه .

ومشتقات الصدق : كالصراحة .

هل هي الا الاعلان الكامل عن النية. فكأنما يستهين الفرد بالظرف الخارجي ويتحدى قدره ؟ وهل ذلك الا الشجاعة نفسها ؟ التي يبدو مظهرها بعد ما يفقه الفرد القدر المضاد لميوله ونيته فيحاول التغلب عليه ليظفر مثاله .

من هذه الوجهه ، يظهر لنا بعد التحليل ان الخلق : هو مظهر معبّر عن حقائق النفس الداخلية تجسده الشخصية في العالم الخارجي. فهو ابتكار لحمل معنى مصدره .

لا يمكن لفرد يحمل هذه النفسية ان تزيح حياته عن دعائمها ، وعندما تقع الكارثة يهوي تواً الى النفاق والجبانة لتلبسه العبودية فاذا كانت الاخلاق عند امتنا هي تعبير عن طموح النفس الى التحقق في العالم الخارجي بطابعها الشخصي فهي عند امم دخلية وخليطة مشابهة جهد للتطابق مع الفروض والحكم الثابتة بل زحف الى وكر المنفعة والسلام .

لذا رأينا ان التاريخ الخلقي لهذه الطبقات سلسلة مواقف متلونة ذات اصطلاحات عملية محرومة من وحدة المثال ، باردة المظهر ، مسممة الدوافع الباطنية . ان لم تكن نزوات متجزئة تتعاقب في حدود الانانية القاسية .

اذا توج الصدق مثلنا القومية ، فان شرف هذه الطبقات التعيسة هو الكذب للاستفادة من الظرف وتبني الحاجات البادية في الافق الخارجي لاذابتها في اتون المصلحة والاثرة . فاذا بدت وحدة حياتنا النفسية ، وبدا الصدق صراحة بتقابل نفسيتنا مع العالم الخارجي ، فان التلون والخبث هما سلمها الوحيد لارضاء الجماهير فاستثمارها .

وما الشجاعة في حالتيها : الا محاولة النفس لشق طريقها في العالم الخارجي . وما الاقدام الا استهانة النفس بالخطر لتحقق مثلا . ولكن قطعان الطبقات التي وزعتها آسيا الصغرى وترامت من بلاد الشرق الاوسط على الاسلام لا تعرف لهذه الفضائل دوافع داخلية تسندها او صفات نفسية تحرسها ، بل الجهد الارادي الشاق والعذاب لتثبيتها - عبثاً - في نفوسها . ففضائلها اما على الرغم منها لجهلها اسبابها ، واما قناع خداع لا حقيقة له في بنيانها الا كما يعرف الذئب للوصول الى خروفه بوضع جلد خروف آخر على ظهره .

لقد نشرت الجبانة لانها لا تحمل مثلا اعلى في طريق التحقيق ، والشكلية لان وسائل الحياة المثلى - ابداً - غايات في ذاتها ، تتيقظ نفسها وتموت في اطارها . والكذب لانفصال شعورها عن صميمها وانتشاره

في اتجاه التزييف لاستثمار الظروف . والتزلف : لانه اشعار الحاكم بذل المحكوم . والخبث : لانه سلم النفعية . والنفاق : ايهاماً للحاكم باستعداد المحكوم لتبني آراءه ....

فعجباً ماذا يتنفس الفرد الحر في هذا الجو الذميم ؟

ان مجتمعاً - كهذا - تتصلب الاقدار الغريبة لحصر مغالبته في طابق خلائقها ، لتترسب الى نفوس الطبقات الشعبية فتسنمها على ممر الزمان ، لا ينقلب بفعالية فرد بالغ ما اعتلت نفسه وتماسكت في افقها . لذا ينطوي هذا الفرد على نفسه فيضمر او تأخذ فعاليته اتجاهاً آخر . ومن هذه النقطة تشعبت المظاهر الشاذة التي مثلتها الغرائز النفورة او المتنافرة مع مجتمع مزمن الداء . واذا هجرت مجتمعها الى جو اعدل ، عاشت مستقيمة لكن بدون شخصية . لان الحرية الفردية كانت ولا تزال غير ممكنة التحقيق بمعناها الاكمل الا في الوسط الاجتماعي القومي .

فاذا ادلهم الوسط ، او استيقظت الشخصية على مظاهر ذات وقع شائك ، انكمشت اشعتها وانقبضت لتقف عن النمو وبالتالي عن تحقق حريتها . وبمعنى آخر : ان الحرية الشخصية لا تتحقق اذا لم تتفتح النفس في جو مؤسساتها الاجتماعية وعواطف ابناء جنسها على كوامن نفسها ومخططها الروحي .

.....

هذه الخطوط المعروضة تصور بنيان المدن الكبرى . لانها كانت

مهبط الطبقات الغريبة وميدان الاساليب السياسية الاستعمارية .

افليست النماذج التي تعرضها المدن من السكان ـ علاوة ـ نتيجة لتلك العوامل الغريبة المفسدة ؟ فهي سجن الشخصية لا ميدان فعاليتها الفسيح.

افليست الوجوه الملبدة ، الملساء ، وصور الشذوذ النفسي ، والتدني الخلقي ... دلالات على اضطراب الغرائز وخرابها المريع ، وعلى ضمور الدوافع النفسية العميقة فضعف الحس الخلقي ؟

بلى ! هي الجرثوم السام الذي افرزته الطبقات التركية المختلطة بين سكان المدن العربية . حتى اعتل جمهورنا فتناوبت لاضطهاده واحتكار كل اسباب حياته .

ولكن ما عساها تدفع بدل هذا الاحتكار ؟

ان حق التقدم تعبير عن كفاءة القيادة، والاستعداد الاسبق للتضحية، والا فهو استبداد وحماقة . فماذا تحمل هذه الطبقات الوضيعة من المواهب السامية .؟

هل تهب حياتها مثلها العليا عند ما تقصر الوسائل عن نيل غاياتها ؟.. والا فماذا يبرر هذا الاحتكار ؟

ـ اذا كان اعتقادهم مشابهاً ، فاين هي ضحاياهم الخبيثة التي احترقت في اتون جهادنا الشعبي الملتهب ؟ والا فما ضحاياها الكاذبة الا قناع يتكاثف ليحجب بغضهم ومؤامراتهم المميتة على مستقبل طبقاتنا الشعبية .

واذا كانت نوايانا متقابلة فلماذا لا تكشف عنها هذه الرساله ، فيشق

جهادنا مجراه المثمر ؟ .. والحق ان هذه النتيجة هي وقائع العلاقات التي تمتد جذورها في اغوار هذه البقايا الاقطاعية وتأكل ثمرها المر شعبنا المتكاسل والمنعزل .

. . . . .

مركزان لتلك الحياة الاجتماعية :

الانحياز للفرد المجرد . والفعالية الفردية للمعيشة .

هذا الفرد الذي اصبح قوة مادية وتذاً سياسياً ، هو العلقة التي تمتص دماء الاجساد اللاصقة بها . واما المجتمع الذي هو ساحة منضامنة الشروط للنمو الفردي ، غدا قوالب مزيفة تستيقظ عليها عفوية الفرد ، فما يلبث بقيوده وعديد انحرافاته ان يغله حتى يفقد سلطانه على نفسه ، ويغدو محدودب الظهر طويل الاذنين . وعندئذ يقبله مسخاً بشرياً مشروع الوجود .

فلا عجب اذا اكدنا بعد تواني الزمان انه لا رجل حر . اصيل - بالمعنى النفسي والطبيعي تقع يدنا عليه في هذه البيئات المدنية اللزجة .

٦ كانون ثاني سنة ٩٤٦

الفصل السادس

« لما نزل الحجاج واسطاً نفى النبط منه وكتب الى عامله بالبصرة يقول : « اذا اتاك كتابي هذا فانف من قبلك من النبط فانهم مفسدة الدين والدنيا . » فكتب اليه « قد نفيت النبط الا من قرأ وتفقه في الدين » . فكتب اليه الحجاج « اذا قرأت كتابي فادع من قبلك من الاطباء وتم بين اديهم ليقفوا عروقك فأن وجد فيك عرقاً نبطياً فاقطعه والسلام ».

حاجتنا الى نخبة جديدة :

ان الفصل الذي عقدناه عن (حياة المثل الاعلى) ليس الا مقدمة للنتيجة التالية : ان الافكار والمشاعر تحيا على الارض وتدخل في جملة العوامل الاساسية لتوجيه التاريخ بقوة ما تتجسد هذه الافكار ويسيطر اصحابها .

ولا يؤازر الفكرة ما يدعى «بالحقيقة» في هذا العالم الواقعي . لأن المنطق السائد بين جماعة ما هو الذي يجذب او يبعد عن عالمه الافكار المختلفة وما يمكن للخطأ والصواب ان يعينا محلها في حياة امة بصورة خارجية عنها ، بل سيظلان الى الابد صفات لشعورها ، فاذا نمت حياتها الداخلية في افكارها المجسدة ، في بيئتها ، لا يمكن ان نعتبر هذه الافكار خطأ . والا فليس منطق او معيار آخر يحملنا على قبول افكار اخرى اذا لم تعبد طريق الخلاص . فالحقيقة التاريخية كما يقول اذن فلاسفتها - : تتفق مع الحياة والخطأ مميت .

غير اني اعود فاسأل نفسي : ما هي افكاري الخاصة ؟

اليست ظلا لروحي . . ؟ اليست قناع فعاليتي الدائمة ، التي تكتسي ثيابها والوانها بملامسة العالم الخارجي ؟

وما هي الالوان والثياب ؟ ان لم تكن احساساتي وافكاري !

اقول ذلك لا كون عالماً انه لا فكرة او امكانية منطقية انتصرت في التاريخ - على الرغم من مفاجآته - على الواقع النفسي السائد في الدور التاريخي . ان كل ما يمكننا ان نستفيد منه - نحن العرب - ان لا نشك ساعة في هذه الحقيقة التي برزت في تاريخنا بعد ظهور الاسلام وعينت وقائعه الرئيسية . فانه لم يبق الدين الاسلامي على طبيعته عند شعب اعتنقه. بل ان روح كل امة تلبسته بما يتفق مع حياتها النفسية . كما ان المسيحية اذاتها تحولت على ايدي الاجناس التي غزتها الى ما يشبه الفوارق الاساسية بين مذاهبها المتعددة .

وهكذا والى الابد ستنصر الروح الداخلية على الاشياء لترى كل امة العالم من وجهة نظرها .

فلم نقل عبثاً عند ما اكدنا : ان الحلول المعروضة لاحياء امتناهي وحي حارجي كانها استعراض اشرطة (سينمائية) بينما لا تحيا امة من الامم ولا يبدل واقعها الا عند ما يستيقظ شعورها الداخلي ليفتش على مقوماته واهدافه الملائمة .

فعند ما تضع امة على ضوء اوضاعها برنامج الخلاص ، يمكن ان نرى كل ظاهرة في حياتها كانبثاق مباشر عن روحها الخالدة

فما هي غايه نهضتنا المثلى ؟ : هي عودة الشعب العربي الى ذاته، ليتصل في وثاقه النفسية وينوضع في حالة الابداع المستمر لاهداف حياته واشكالها كيما نستطيع ان نسمي كل فرد والشعب بكامله مبدعاً او محققاً لحقيقته » .

ومن هو زعيمها او قائدها المثالي ؟ « هو الممثل الذي - يهتدى اليه - فيكشف ويعبر في مختلف وجهات تفكيره ونزعاته عن المثال العميق للشخصية القومية ، يعيد امته الى الصواب ، يقيم الاهداف ويتقدم بها ، يمثل كبرياء العاطفة القومية بما يطفح عن وجدانه من المشاعر الحرة . يعتبره الجميع وقفة في وجه الحياة الانانية والعمل التحريضي » .

. . . . .

لنلاحظ قبل التوسع في وجهة نظرنا الاخيرة ان الطبقات الاجتماعية تتباين فكريا بصورة عميقة عند كل الأمم مهما استولت على الجماعات وجهة نظر واحدة . فاذا حللنا هذه الفوارق ، نجد ان الاغلبية العظمى منها تعيش - تحريضياً - بدون جهد يذكر في حياتها الفكرية . اما لأنه لم تتيسر لها التربية العقلية واما لأن الجهد الشخصي يتضاءل بنسبة ما يرتفع وما يتنوع مقياس الابداع .

اما القسم الباقي فيمكن ان نجعله على درجتين :

الفئة الاولى : ترتفع على المستوى العامي المتقدم حيث تتجلى لها حياتها اوضح من الاولى ، فتتجانس مع من دونها ، وتفهم الاعلى منها صحيحاً دون ان تتخطى حده .

غير ان الفئة الاقل ما تكون والاخيرة ، هي التي تبدع في الحقيقة اشكال الحياة العامة وتوجه فعالية المجتمع مباشرة اودون مباشرة. انها الفئة المدركة لذاتها ، التي تبني نفسها بتأملها وذكائها . انها رأس الهرم الاجتماعي .

ان هذا الرأس هو مانعني به : طبقة (الممثلين). اوالقادة الذين تتجاوب تياراتهم الروحية مع البيئة الاجتماعية ، وبهذا التفاعل تخلق النظم المتبدلة على الدوام .

الا ان الفعالية الذاتية التي تطمح دوماً الى التحقق تطمح الى التقدم، فتبقى مفتقرة ابداً الى العالم الخارجي ، اذ تتجلى صورتها بكمالها في جماعة البيئة . فيعنينا القول ان هذه الاكثرية الاجتماعية مرآة يرى فيها القائد صوره المتعاقبة .

. . . . .

قلنا ان التقدم المنتظر هو المستوى الروحي الذي ترتفع اليه الاكثريات الشعبية . وليس ما تنتهي به آمال هذه الاكثرية الا التقدم المادي . لأن الذهن الشعبي تجسيدي - بالمعنى الفلسفي - وان كان مبعثاً لتطورات جديدة . غير انه سديم تتمازج فيه النزعات المكبوتة وتعصي على الصعود

لى ساحة الشعور . فهو غير كفء لفعالية روحية مستقلة. فمستقبله مرهون ا بدأ بالاقلية النادرة، ذات الميول المثالية والشعور الواضح ، التي اشبعت روحيتها بالتماسك، ان تزيح الستار عن حياته الداخلية المتوارية دوما عن انظاره . فتبرز هذه الحياة كخطوط مميزة لاخلاق القادة القوميين.

. . . . .

ها قد اشرفنا على الساحة الخطيرة لنتيجة دراستنا الحالية :

فاذا كانت حقيقة التقدم الانساني تكمن وراء المستوى الروحي الذي ترتفع اليه الطبقات الشعبية ، وان دعوة او حركة روحية ليس لها معنى الا العودة الى الذات الداخلية لاشتقاق شرائع جديدة، في حين لا مستوى روحي ولا (عودة الى الذات) تعين العمليات بالافكار المختلفة او بوسائل المعرفة المجردة بل تبقى تصورات اذا لم تجسد هذه الفعالية الروحية فرديات مبدعة تقلب وجه التاريخ .

اذا كان كل ذلك واقعاً : افليس لنقول كلمتنا الخطيرة : ان مستقبل امتنا ـ كما هو مستقبل الانسانية ـ يكمن في طبقة القيادة التي تحيا او التي تنجبها امتنا في آتي الزمان .

فعلى كفاءة هذه الطبقة ـ في كل الميادين ـ يتوقف ازدهار وتفتح شعورنا واخلاقنا .

فلا عجب بعد ان علمنا الدور الخيف الذي تلعبه هذه الاقلية البشرية

النادرة في حياة الأمم. اذا رأينا على جانب من الكرة مئات الملايين من الشعوب الراقية تسعى كقطعان عمياء وراء عصابة قليلة العدد متطرفة.

بل لا عجب اذا رأينا امة كبيرة تهافت على عبادة شخص واحد يقودها طائعة الى الموت او الحياة.

فاذا جف وجه الارض من هدف سام متمثل بفردية جبارة، انساق النوع الانساني عاجلا في اتجاه الحياة الخاصة وطلب المعاش لتمديد حياته ويتقاعس الجميع في العمل التحريضي.

ان هذه الشخصيات التي تلعب في ارواح شعوبها المطيعة ليست في الواقع الا صوت العظمة الصارخ في اعماق الملايين طالبا الخلاص والحرية.

فلا احكام الوضعيين، او مناهج التربويين التقليديين، ولا مفاهيم الفكرة او المادية التاريخية .... هذه الحدود النظرية.. كلها تتلاشى في هذه الادوار الكبيرة التي تعود على جميع الشعوب بالتفتح والحكمة.

وليس لشعب على الارض ان يقبض على ناصية العظمة اذا لم تكن حياته الداخلية مسرحا فسيحا لهذه المشاعر النبيلة المثلى.

هل تكمن العظمة الا في هذه الثروة الروحية يا ترى؟

هل تحيا امة اذا لم يكن بنيانها الاجتماعي فسحة تتجاوب فيها نوازعها النبيلة لتبدو فضائلها سمات على ابطالها الخالدين.

اني اتقدم خطوة في هذا العالم البعيد لاقول : ماهي دراستنا الحاضرة ان لم تكن توصيفا لهذا المجتمع الفني وبالنتيجة بشرى ببطولة جديدة .

. . . . . .

ان اندحار امتنا المحزن في ساحة الخلق والفكر ليس الا منذر مخيف بوقوع مصيرنا بين ايدي طبقة من القادة المتوحشين تستبيح شراهتها ارواح الطبقات الشعبية كما تستبيح الهرة دم صغارها. فمجتمعنا الذي خيمت عليه الرزيلة منذ قرون وغاصت في حياته نزعات التضحية، قضي عليه بالفشل ان تعود خلائقه الكريمة الى حياته الواقعية او تستقيم علاقاته بالتضحية والمحبة منذ ما بدأت طبقات غريبة خسيسة النفس والجنس تعتلي ساحة الحياة العامة وتصرف امور المجتمع من وجهة نظرها.

شرازم متنافرة، فقيرة الروح، ضامرة المواهب، اندست في عصور الانحلال الجنسي والنفسي بين صفوفنا ووطدت مراكزها الاجتماعية بقوة النفوذ السياسي الغريب ومقدرتها على التلون والرياء.

هذا الفرد الغريب جنسيا - لا دينيا - تراه في اقوى المجتمعات اقدر الافراد على ابتكار اساليب الاثراء المادي. لانه يستبيح من الوسائل ما لا يرتكبه الفرد القومي في امته. لأن المسؤولية الخلقية التي تفرضها دوافعه الداخلية، لا يتحمل هذا العبء القاسي، فلذا لاحدود للوسائل الدنيئة وغير المشروعة التي يمتطيها لجمع الثروة. كما انه يتقدم الى جهاز الدولة باخلاقيته المذكورة، فيعكس الخدمة العامة لتصبح اداة يرينا استخدامها

اقبح نواياه .هـذا اذا كانت قوانين الدولة الاساسية لا تحرم عليه الانتساب اليها .

هذه الحقيقة التي ترتفع على الشك ، تلخص نجاح افواج المهاجرين من دولة الى اخرى وحتى في ارجاء الوطن الواحد في العصور الحديثة .وما ازمة الحرب الالمانية الاخيرة في ابرز عواملها الا هذه الحادثة المشهورة .كما انه ليس اسباب النزعزع السياسي والثورات الداخلية في التاريخ الاسلامي الا دلائل قاطعة على صدق هذه الحادثة ذات الصور المتعددة .

لأن المبادئ الدينية الاسلامية الغت الفوارق بين الاجناس ،فانتزعت هذه الاجناس المغلوبة ـ من غير العرب ـ النتيجة الحقوقية لهذه المبادئ وتقدمت وراءها الى وظائف الدولة الدنيا وبالتالي الى عتبة الحكم ، ليس عن طريق قوتها الخلقية او العقلية او الفكرية -كما هو معروف في تاريخنا- بل بجميع ما نتصور من اخلاقية العبد الذي يحتل مكان سيده اما بالتآمر عليه او بعد وفاته .

ن حكم المماليك من الاتراك والجراكسة والاكراد...نقطة بارزة في هذا الميدان .

.....

لنعد الى القيادة :

ان الانحطاط والتزييف اللذين يطبعان اخلاق واوضاع مجتمعنا الحاضر كل ذلك عود ليدلنا على انحطاط طبقة القيادة التي على ممر الظروف

السياسية - المفصلة سابقاً - تمكنت من السيطرة ماديا - واجتماعياً على حياة امتنا .

ان المجتمع الذي اضاع استقلاله على ممر الكوارث المتقدمة ، لم يبق امامه الا مجال الاطاعة . وفي الحقيقة ان الجماعات والقبائل التي كانتا بعيدة عن مراكز النفوذ السياسي الجديد ما تزال كما كانت تحتفظ بدوافعها النفسية القوية وبجدارتها على المقاومة ان لم تكن بالتعيين عصب الحركات الثورية في ذلك التاريخ المتقلب ، وفي هذه الساحة البشريه النظيفة نريدان نزرع تعاليمنا لتحيا في العصور الحديثة .

وهكذا، بعدان فقد الفرد استقلاله الشخصي - في مجتمعه - تهدمت بالتوالي الحواجز التابعة ليصبح قلعة لا سور لها . هاجمته عناصر ومقتضيات غريبة وحدته النفسية حتى احتلتها وخربت القتها الدقيقة ، لتختم غمامة دكناء فوق ارض المجتمع حجبت النور عن الجميع .

بدأت الاقدار الغربية تختار اوضاعها: فاذ فسد الحكم السياسي فقد خبا الروح القومي ، واذ فسد الخلق فقد كانت الحياة الداخلية تعاني اوجاع الكبت والتحرق . واذ قبحت وتزيفت التقاليد والافكار ، فانها اشكال جوفاء وبواعث نفسية متقطعة لامعنى لها . فحينما انفصل الشعور عن الصميم استقل العمل عن الفكر ، فانحط الفكر بتدني النفس ، واخذ يعيش متلوناً في عالم الانانية .

هذا هو السر الوحيد لفقدان الاتجاهات الفكرية في امتنا . نظراً

لاطلاقية التعدد في النظرات الفردية بل لانسياق الجماعات المتكاثفة في المدن والعائليات المحصورة الى همود القوى الروحية فالعصبية فالجنون .

ففي اطار الحياة الخاصة والنفعية . ترجم المجتمع عن امكانياته وخفاياه .

اذا تقطعت اعصاب الوحدة النفسية ، استحالت الحركات العامة ، بل اصبحت كل حركة عامة مومياء ، وكل تكتل منظم هذه المومياء الا انها مزخرفة . ولهذا فما تكاد تهب ثورة سياسية حتى تخمد ، لانها مقاومة اخيرة لعصب يقطع صلته بجملته ، وما تحيا فضيلة حتى تخون نفسها لانها تقليد او قناع الانانية ، وبالتالي :

فان قوى الحياة العفوية والارادية تتاكل وتتناثر بمقياس ما تتوسع صلة الفرد ومعرفته بمجتمعه . لأنه ما من حجيرة سليمة تحيا في الجسد الذي تقطر صديداً اعضاؤه المتأكلة .

اكرر قولي: اذا كان ازدهار شعب من الشعوب في مختلف العصور متعلقاً باعمق اسسه بسمو او انحطاط طبقة القيادة الشعبية التي تجسد ميوله وتوجه فعاليته ، فلا عجب اذا بدأ مجتمعنا متفسخاً يتصاعد نتن امراضه من قرحته .

والسبب في ذلك ان طبقة القيادة (الاقطاعية) ليس في تركيبها الجنسي ما يؤلف البنيان المتجانس فالأدارة المشتركة ، ان اصلها يرجع الى غدد من

بقايا الشعوب ، ليس بينها قرابة طبيعية او نفسية . فالتركي لا يتجانس مع الكردي ، وكلاهما ينفران من الجركسي وتنف الارناؤوط والافغان. . . وهذه النتف المنغولية. . . المتعبة من احلامها والتي استسلمت الى الاسلام.

ان العائليات البارزة التي شكلت مراكز التكتل الاجتماعي ترجع في الحقيقة الى هذه الجنسيات المتنافرة . غير انه من وجهة نظرنا . كانت تمد جذورها الطفيلية على شجيرة المجتمع العربي لتمتص نفسه الروحي .

. . . . .

بعد ان انتهينا الى ان القيادة الشعبية في بلادنا هي نفسها طبقة الاقطاعيين المتزعمين وما زالت كذلك ! نقول ان تباين هذه العناصر كان انذاراً بتهديم آخر لبنة في جدار حياتنا العربية لتخيم اسطورة القيم المعتمة على النفوس . عدا عن ان هذه العناصر لم تتمتع على ممر ايامها بقيمة شخصية . لأن هذه القيمة ابداً مرهونة بالمستوى الروحي . هذا المستوى الذي تبنيه الطبقات الشعبية في مثلها العليا . ولكنه في طغمة بشرية عقيمة اعطاها الدين الاسلامي - بعد استسلامها - مشروعية الوجود في الحقوق والقيمة لم تحيا ولن تحيا هذه المثل في روحانيتها القائمة . واذا اكتسبت هذه النتف حقوقا ومشروعية فذلك بعد التنازل عن ماضيها وعاداتها لتعيش في قوالب ساواة الدينية .

اذن : لم تتمتع هذه العناصر واجزاؤها ، العائلات .. سابقاً ، كما لم تبن

لاحقاً نظرات بتقاليد عريقة ثابته ، تجسم مثلها ، فتحفظها هذه العائلات بالتضحية .

ان اي تربية ممثلة لأي قيم ، او اي استقلال نتيجة لأي ميزة روحية ، لم تحمل ولم تؤسس هذه العائليات فيما بعد . بل كان ظفرها يرتبط دون نهاية بقوة السلطة السياسية الأجنبية التي تهيمن على الامة العربية . ولذا تقبض على سر تعاونها الدائم مع السلطات الاستعمارية كما سنشرحه .

افليس ذلك نتيجة لغرابتها عن بيئتها وشعورها بهذه الغرابة التي لا يرتاب عربي في هذا السبب ؟

مع ان ما يسمى « اريستوقراطية » او «قيادة» او زعامة شعب من الشعوب ، لا يتعرى ابداً عن هذه الصفات الاساسية ، سواء في حالة القرابة بين « الاريستوقراطية » وبين المجتمع في انكلترا او المانيا واليابان . او في حالة التنافر الجنسي بينهما كما في روسيا وفرنسا .

ولكن هذه القرابة الظاهرية - بالعادات والمظاهر الاجتماعية - ليست بيننا ابداً وبين « اريستوقراطية . او قيادة » بلادنا الشاذة . عدا ذلك ، فان هذه الطبقة البارزة التي تحيا في بقية المجتمعات الكبرى يرد وضعها على معان مختلفة .

معاني « الاريستوقراطية » :

اذا كانت طبقة « اريستوقراطية » تحميها تربيتها الخاصة وتبرزها في الصفوف الاجتماعية مواهبها في « الحرب والسياسة » فان الطبقة البارزة

في بلادنا مدعاة للسخرية والضحك اذا دعيت عائلة من بينها انها « اريستوقراطية » بأحد المعاني المتقدمة . لانه في الفن الحربي لا حديث ولا محدث . واما في نطاق التضحيه السياسية ، فانه لاخطوة تقدمها مجتمعنا العربي في السياسة الا بعوامل الظروف الخارجية الاولى . هـذا ما يعلمه العقلاء والمخلصون الذين لا يحبون ان يخدعوا انفسهم . اقول ذلك على الرغم من عدد الثورات الدموية والتضحيات المادية وآلاف الجثث المتساقطة في فيافي الوطن المجهولة .

ذلك لأن المعنى الذي يغدو مثلا قومياً في تاريخ التضحيات لشعب من الشعوب ، لا ترتفع حادثته الى هذا الافق الا عند ما تلازم التضحية شروطها النفسية في مادتها . فموت فرد او عدد لا يحصى من الناس في سبيل هدف او حزب لا يترك في اذهان معاصريه او مجتمعه دويا دافعاً وعميقاً حتي تكون الفكرة قد اضاءت نفسه وعينت طريق تضحيته .

واذا استفاد المجتمع او الحزب من الموت المجرد فليس الا على حساب الفكرة المتوارية فلنفتح تاريخنا ما قبل قرنين ـ مثلا ـ ، ولنعد الى حاضرنا الاخير ، فلا نظفر ـ بهذا المعنى ـ الا بحطام البطولات المشوهة والموت العقيم . ذلك لانها اما ناتجة عن باعث خارجي يعمى الفرد البليد عن سببه واما وقعت في مناسبات طارئة خلت وتخلو من المعنى القومي المشترك .

فاذا تيسر لنا ان نسأل جميع الذين ماتوا فداء مجتمعاتهم ـ كما يدعون ـ هل يفضلون العودة بدون مجد على حساب مثلهم ، ام تراهم ينامون مشبعين

بنشوة الظفر ، اضحكنا مستغربين عدد الاصوات التي تتعالى طالبة العودة الى الحياة . . ؟ .

لأن صميم الشعب لم يتفجر عن بعد معانيه الكامنة فيندفع جمعه لتحقيقها اذ بعد ما فقد استقلاله ـ كما قلنا ـ لم يبق امامه الا مجال الاطاعة التقليديه .

. . . . .

اذا امتحنا « اريستوقراطية » هذه العائلات المسيطرة بمعنى الكفاءة الحربية او التضحية السياسية لا نجد حادثا يسمح لنا ان نتهمهم بهذه الفضائل . عدا عن ان الادوار السياسية التي عرفناها بعد الحرب العامة الاولى ليست الا اسلوبا استعماريا لعبته هذه الطبقة الخائنة .

لأن «السياسة» ـ بمعناها المتقدم ـ كمناهج قومية لتحرير وتقدم الشعب ، لم تعرفها هذه الطبقة النفعية ، وبالتالي لا تعرف ضحية خبيثة واحدة بين هذه الطبقات كنهايه لحياتها وبرامجها السياسية . فاذا اضاعت السياسة معناها المثالي المرسوم ، لم تبق الا ضجات الغوغاء الصاخبة ، وحوادث دموية طارئة يركب متن سلامتها الجبناء ليصلوا عقب كل هزة دامية الى الحكم حقبة تستنفد صبر الجمهور .

كيف برزوا زعماء سياسيين ؟

قلنا ان السياسة لم يعد لها معنى الا الحوادث الطارئة. ليست برامج، ولا نتائج انقلابات مهيأة. بل قفزات طائشة مفاجأة بعوامل محلية او عوامل اجنبية.

تتدنى مفهوم السياسة، وبالتالي التضحية في وجدان الجمهور، وتسفلت الى ادنى حد مشاعر المدن الكبرى الوطنية، حينما احتلت هذه الحوادث الدموية النزويه، وللضجات الصحفية الكاذبة، والمأجورة مفهوم العمل السياسي والتضحية في سبيل المجموع. فتمم الاستعمار هذا الفهم الغامض بتثبيت هذه الطبقة في اذهان الجماهير المتقلبة.

اللعبة:

يفاجأ المجتمع بحركات عامة نتيجة لحوادث عارضة او مفتعلة من الدوائر الاجنبية الاستعمارية وتدمي هذه الحركات فتأخذ طابعاً شعبياً لتحتل كل حركة مشابهة مركز مفهوم العمل السياسي والاستعداد للتضحية عند الجماهير. فاذا تطورت الحوادث القائمة الى واقعة بين الجمهور والسلطة الاجنبية؛ انتقت السلطة عدداً من (وجوه هذه العائلات) واودعتهم سجون - ظاهريا - كرمز لخروجهم على الاستعباد الاستعماري. فيحتل هؤلاء الافراد الذين اعتقلتهم السلطة مركز الانفعالات النبيلة عند الجمهور - بالتعاكس مع ارادة السلطة - التي تصب نقمتها - عادة - على المخلصين.

فينحرف النزاع الدامي عن سببه المباشر وهدفه الى دفاع لتخليص (ابطال الحوادث المعتقلين)، حتى ينتهي النزاع - طبعاً - بالافراج عنهم،

فتعود الانفعالات الشعبية الى مركزها (بعدمية غايتها) بعد ان علق الى ماشاء الله - هؤلاء الافراد على اذهانها الجامدة .

هذه هي الوسيلة التي سلكها الاستعمار لخلق زعماء السياسة في بلادنا: فكل من تعتقله السلطة صباحاً يصبح قائداً سياسياً في المساء .

فاذا انتهى حرب هؤلاء القادة : مع السلطة الاجنبية في بلاد العرب بالثروة والبروز الاجتماعي فاحتكار (الوطنية) ، ممن لم يكونوا اكثر من صعاليك الموظفين الاستعماريين . وهذه هي نهاية قادة السياسة والمتزعمين في مجتمعنا العربي الحزين في ظل الحكم الاستعماري السفاح .

والا فأن اباحية الاستعمار تؤدي بغريمها الحقيقي - ان لم يكن الى الموت المادي - فالى الموت المعنوي . ان زعماء السياسة في مجتمعنا هم هذه الطبقة الاقطاعية التي خلقها الحكم التركي واذنابها الخبيثة . انك تراهم يتوارثون قيادتنا القومية كما يتوارثون ثرواتهم المسروقة ويحتكرون هذه القيادة التي تؤدي بابطالها تحت ظل الاستعمار - دوماً الى الشقاء او الموت.

لقد تبنت هذه الطبقات الفعاليات الشعبية العامة بشكلها - السياسي والاجتماعي - بالتعاون مع الاستعمار - كبطولة ابان المعارك الدامية، وكنفوذ حكومي وثروات طائلة في ادوار السلام لتقتل كل فعالية شعبية مستقلة يمكن ان تشق الي الابد جادة الخلاص .

لقد انتهت فعاليتها المكافحة الى الثروة المفزعة لا الى الضائقة المادية المغنية . والى النفوذ الحكومي لا الى الانضواء في مجاهل الحياة الخاصة،

والى السلامة والرفاهية لا الى الألم والشقاء والموت .

سلوني !

هل طمرت جيفة من هؤلاء القادة السياسيين الا في عقر دارها ، واباحية الاستبداد الاستعماري تحرق ارواح شعبنا المعادية دون رحمة او هوادة ؟

سلوني !

هل تعبت اذهان هؤلاء المتزعمين في تجلية اوضاعنا العامة الى بصر الطبقات الشعبية بمؤلفاتهم ودراساتهم . ؟

ام كانت نتائج هذه الضجات (السياسية) المتعاقبة فشلا يعقبه فشل قتل دوافع التضحية الشعبية وطمست بصائرنا الاساليب الاجنبية .

اذا اغلق في وجه مجتمعنا سبيل خلاصه فليس الا لأن هذه الطبقات اللئيمة قد طمرت بافرازاتها اللزجة منافذ الفهم الشعبي وزعزعت توازنه العقلي اساليبها الغريبة .

انه لم يتجاوز مفهوم (العمل السياسي) هذه الانتهازية المستعجلة التي اكلت ثمرتها السريعة بطون الزعماء الجشعين . واذا عدنا لتعداد التحزبات والتكتلات السياسية . . والى الجهاز الحكومي نرى ممثلي هذه الادوار المتصلة هم هذه الطبقة الاقطاعية الغريبة واذنابها منذ اكثر من قرنين حتى الساعة الاخيرة .

فاذا قصر دورها عن الحكم ، حصرت لعبة السياسة في عائلياتها

(الوطنية) لأن انانيتها المتصلبة ابداً ، تهبط بكل نزعة نبيلة الى قرارة المسوخية والاستثمار . واذا صعدت الحكم وقبضت مقاليد المجتمع ، تكالبت عليه كما تفعل العلقة اللزجة فما تترك جسدها حتى تنتفخ بدمائه وتسقط ميتة بشراهتها .

ذلك لأن كرسي الحكم يشبع شهواتها الجشعة ويعطيها مقود الاستبداد والانتقام والاستثمار . فهي ابداً مدفوعة بالجناية والتزييف في اطار الفعالية الاجتماعية ، والاثرة والاستبداد في مملكة الحكم .

ان هذه النتائج التي تضج امتنا لتكرارها ليست في الواقع الا نتائج طبيعية لخلق هذه العائليات واصلها الخبيث .

. . . . .

لنمتحن هذه الاريستوقراطية « على معان اخرى »

اذا كانت هذه « الاريستوقراطية » في ميدان الثقافة والكفاآت العقلية . . . فان حدود الامكانيات المرسومة في الفصول المتقدمة ـ للنبوغ تقف في طريق الوصول الى ميزة ما . لأنه ـ كما قلنا ـ : ان افكاراً ما ، هي تابعة لحالاتها النفسية ، وان هذه الحالات النفسية ليست الا صدى الروح العميق ، لم يكن لسؤالنا معنى اذا عرفنا ان هذه الافكار ليست الا قشرة هذه الروح الخارجية .

فان كل معرفة مثلى لا توجد الا في مملكة الابداع . ولكن فكرة

واحدة تستحيل ان تخلص من عبودية التزييف ونفعيتها اللذين يطغيان على مجتمعنا الحاضر . وهكذا اغلق ابديا ميدان الثقافة في وجهنا للاسباب المتقدمة وللتالية :

ان الثقافة لا تفيد المعرفة المجردة . كما انها لا تتعلق بكمية التعليم ولا بالمستوى المادي الذي ترقى اليه الفرد او بين شعب ما . بل هي حياة روحية تعطينا معنى جديداً يبدو في نظرة الامة للحياة لا في اطار الفرد المستقل... فمفتاح الثقافه الحقيقة - بهذا المعنى - بد الابداع الذي يجلي اعماق الذات الداخلية .

ان هذه « الاريستوقراطية » في ميدان الثقافة ميتة الجذور .

. . . . .

ما تحديد هذه « الاريستوقراطية » ؟ .

- انها طبقة غريبة عن الشعب وغريب عنها ؟

غير ان هذه الغرابة لا تبني اي اريستوقراطية .

ازيد : انها طبقة غريبة من المتنفذين تقبض على مصالح وتوجه فعالية الطبقات الشعبية .

ما هي عناصر هذا النفوذ ؟

لنتذكر اننا حددنا نشاط هذه الطبقات الروحي واهدافها بقولنا : انها تعتبر الوسائل غايات في ذاتها . وضربنا مثلا في الثروة والوظيفة . وان هذه الحدود ليست هي حدود اي فعالية بشريه سامية بل هي مقتضيات

ونتائج وضع هذه الطبقات القديم واهداف انانيتها الشخصية .

فهل آن لنا ان يقف بنا البحث الى القول : ان هذه «الاريستوقراطية» لا تفيد معنى سوى الثروة المادية . الثروة المادية وحدها ، التي تيسرت على ممر الزمان في هذه البلاد لهذه الطبقات عن طريق الهبات السلطانية الخرقاء والاغتصاب والرشوة بقوة الوظيفة الحكومية والوسائل التابعة . لأنه - كما قلنا - لانهاية للطرق التي يسلكها فرد غريب على مجتمع غرابة جنسية وخلقية لربح الثروة .

الثروة العقارية الواسعة ، التي تشكل من اصحابها طبقة الاقطاعيين الثقلاء في اكثر بلاد العرب وتسهل لهم هذه الاقطاعية استبداد آلاف الفلاحين العرب ونكبتهم في اخلاقهم وحريتهم .

هذه الاقطاعية التي لم ينظر اليها ولا لجميع اشكال الثروة عند ابناء امتنا كغايات تحفظ قيمة في ذاتها لأنه ما من دوافع نبيلة تشع في روح هذه الطبقات وتنير امامها طريق الفضيلة والتضحية . فنفسها الفقيرة تشعر ابداً بجوع خبيث الى مستند خارجي يزين لها الثقة والتقدير . وهذه الحاجة التي تبعث القلق والاضطراب في البنيان النفسي الاجوف تفصل بين الانسان وصميمه وتتركه العوبة خفيفة بيد الشوارد والصغائر اليومية المتقلبة .

فاذا انفصل احساس المرء وذكاؤه عن اعماقه ، نمت هذه الاحساسات وافكاره بالتجمع على سطح الوجدان . وعند ذلك يساور ابداً هذا الفرد القلق ويشعر الجميع بقبحه . فاذا خلا لنفسه ذعر ، وكره ذاته المجوفة ، فيلتجيء

مجنونا الى الحياة الاجتماعية ليجد ملهى عن النظر الى بشاعته الداخلية وملء فراغها.

فهو - ابداً - لا يلتقي بالصميم مع امته ولا ينمو الا بالتضاد مع ميولها العميقة. فما لسبيل ان يعيد اليه هذه الثقة النفسية او (يملء نفسه ويقويها) لا بمشاكسة المجتمع واما باشعاره بالحاجة اليه. فهو يتراوح في طفيلية بين طبي الحياة المزيفة في علاقاته الاجتماعية واما بتضخيم الثروة المادية، لتمكنه بصورتيها من الاستبداد واشعاره بالحاجة اليه.

وراء هذه العوامل العدائية السرية، المتعددة، يجثم مستقبل هذه الطبقات الاقطاعية واذيالها. فترى كيف تندفع في اعماقها الخيانة والمؤامرة بطرفي حياتها الشعورية وغير الشعورية.

ان مظهراً قد ثبتت براهينه وتوضحت علله سيعطينا في المستقبل الدواء الفعال لقتل دائه.

. . . . .

معايير اخرى

واذا كان لهذه الطبقات الاقطاعية ما يبرر اعتبارها طبقة «اريستوقراطية» بمعنى اخلاقي او ثقافي او سياسي فان اعتبارها كطبقة (قيادة قومية) او شعبية مرهون بعدة عوامل قوية تقوم على اساسين:

الاول: هو عمق احدى هذه الميزات التي تمثلها.

لانه لا يكفي لمنح فرد حق التقدم في ميدان، ان يكون لهذا الفرد

ميول ابطاله ومن ثمة لا يتحدد هذا الحق بالعائلة المذكورة ايضاً. لأن سؤال (القيادة الفردية) ـ لا الوراثية ـ نفسه يرد بمعنى الشدة لا الصفة المجردة وحدها. ومعنى ذلك: ان نسأل: الى اي الاعماق ينفذ المبدع ليجلي المشاعر والكفاآت النادرة؟

اي ما هي شدة هذه المشاعر؟.

والثاني: اذا كان الفرد ومن ورائه العائلة تجسد ـ وراثياً كفاءة ما، فما هي المسافة بين القائد والتابع؟.

لان حق التقدم متعلق بمستوى التابعين. والا كان استبداداً وحماقة او ما يعبر عنه: بالميزات والحقوق المفروضة سابقاً.

وفي الحقيقة: هذا الحق، حق التقدم او ـ القيادة المجردة ـ هو بمعزل عن العلاقة مع كلمة «اريستوقراطية) ولا جذور له في مملكة الكفاءة المنعزلة. حيث ان كل كفاءة هي تمثيل واضح في الشعور.

غير ان الشعور لا ينمو بحرية او يتوضح في المملكة الداخلية المغلقة. لذا لا تبدر الكفاءة تجسيداً لميول مشتركة تسلم الفرد القيادة. واذا تحقق خيالياً شح هذا الدور البطولي في فرد من هذه العائلات الاقطاعية الغريبة فان اي برهان او حجة لا تدخل القناعة الى ذهن ابنائه فعائلته انهم لا يملون تلك الكفاآت بكمالها او ان حق التقدم ليس وراثياً ومفروضاً لهم على الجمهور

ذلك ما يبدو عصبية عائلية مغلقة بين هذه الطبقات ذات المستند

الوحيد : سلطتها القديمة التي فرضتها علينا السياسة الاستعمارية المذكورة ومعرفتها بأصلها الغريب السابق .

في حين يضحكنا القول : ان هذه الاسباب وحدها لا تمنح حق التقدم او على الاقل حصره في اطار العائلة المغلقة .

ان هذا كله لا ينسينا العودة الى الاساسين المتقدمين :

ومنه ننتج : انه لا يكفى الاريستوقراطية - بمعنى من المعاني - ان تحصر في اطارها العائلي وراثة للتقدم في فرع ما - على فرض تحقق المعنى - الا عند ما نتأكد من رفعة مستواها بالنسبة للطبقات الشعبية التابعة . لانه عند ما يستطيع المصارع المبتدئ ان يصرع مدربه في الزمن المناسب، فانه لا يمكن ان نحصر حق الاستاذية في المعلم القديم .

فاذا ارتفع المستوى الشعبي الى مرتبة هؤلاء القادة(افراد اوعائلات) فقدوا اسباب تقدمهم لينما ينبت المجتمع طبقة جديدة في ممالك حياتة تمثل اعمق فاعمق الكفاآت والحاجات العامة ليعود اليها حقها من جديد .

فاذا قصرت المسافة بين القيادة والتابعين ، ليس الا ايذاناً بزوال

القيادة . غير ان تراجعها كان يتم بوقائع ذات نتائج مختلفة .

فاذا تنافرت هاتان الطبقتان جنساً ، فمعنى ذلك : انه لا على ارض غنية نبتت كفاءة طبقة القيادة او اعطيت حق التقدم القديم . بل تكون القيادة مفروضة فرضاً بعوامل القوة كالغزو او الضغط السياسي - كما جرى عندنا . - حيث تحيط نفسها بالحقوق والميزات السابقة دون قبول ورغم

الطبقات الشعبيه . وحينئذ لا نرى الا الاستبداد واللؤم علاقة بين القائد والتابع .

فاذا قست هذه العلاقات - بتطرف كل منهما - : الاول لا يرى في الجمهور الا كائناً غريباً عنه لا يستحق الحرية والحياة ، مكلفاً بالاطاعة والخدمة العمياء والثاني لا يرى في هذه العصبية الا حماقة انانية ونزوة طائشة ليس لها جذور في فضيلة او كفاءة ما ، انحلت الازمة بانفجار دموي مريع كما وقع في (فرنسا وروسيا) بين الشعب والاقطاعيين .

غير ان القرابة الجنسية بينهما - اي حينما لا تكون مجموعة القيادة - الا متممة حية للطبقة الشعبية يوضع حد لهذه الانفجارات الدمويه .

ما معنى هذه القرابة ؟

اولا : ان الشعب وقادته (النبلاء) من اصل جنسي واحد . وهذه هي الصلة الوحيدة - كما سنرى - التي تكفل لهذه العائلات في الامة العربية الاحترام والاطاعة . في حين ترد هذه العائلات على العواطف الشعبية المحافظة بالاسبقية للتضحية تقديساً لامتهم . لانها تشعر بالمساوات القوميه بين افراد الشعب . هذه المساواة التي تعني الصفة الانسانية المشتركة وليس بالكفاءة الروحية ، والا لاستبد الحاكم بالمحكوم وثار المحكوم على الحاكم .

انه دوماً يخالج هذه العائلات شعور الاخلاص ، والا الندم حينما تتجاوز خطأ على كرامة الشعب ، هذا اذا لم تصبح حياة القائد ثمناً

لسوء تصرفاته.

ان فردية العربي وشعوره بقداسته الشخصية لم تكونا وحي ذاته المنفردة. ان هذه المشاعر الدقيقة بقيمة الفرد وسموه النفسي هي العبقرية القومية التي تدفع ابناءها فوق ذاتهم لحفظ مثل الأمة.

لا فروق اساسية بين الطبقات الشعبية في امة واحدة وقادتها:

فليس لشيخ القبيلة حقوق مفروضة كالاقطاعيين فرنسا على الفلاحين (قبل الثورة). ولا (للخليفة) او (الملك) او (الشريف) الحق المطلق بالسلطة المطلقة التي تنتهي باستبداد الطبقات الشعبية او الاعتراف بانانيتهم الفردية العمياء. لأنه ما السلطة عندهم الا ارادة الأمة في آخر تعبيراتها الفردية.

غير ان لهذا لا يفيد المساوات العادية، ولا الحكم «الديموقراطي» بالمعنى المعروف. على العكس:

نرى الامة العربية تحفظ للاسر النبيلة «الاريستوقراطية» باسمى مرتبة في حياتها العامة. لأن هذا التقدم ليس له مطلقاً الا ميدان الكفاءة الروحية.

الخليفة ... والملك ... والزعيم ... والشيخ ... ان لم يكن اسبق للتضحية والكرم والمروءة فلا معنى لاحتفاظه بمرتبته الادناءة التابعين.

ان قبائلنا القديمة لا تعرف سبباً يكسب حق التقدم الا تجسيد نزعاتها المطلقه - جزئياً - من الحياة العملية.

الم نسمع الشاعر يقول :

ومن كن ذا جود وليس بمكثر فليس بمعدود من الكرماء

اليس في قصص حاتم والسموءل ما يعبر عن اغراق الكائن باطاعة ذاته المنطويه على صدق ونبل المشاعر التي تلهمه. وهكذا في بنيان امتنا : يغدو كل فرد حاكما ومحكوماً معاً .

وقد قدمت مثلا في رجل الدولة ـ عمر ـ وعشرات الخلفاء العرب المماثلين حينما استفتى هذا الخليفة الناس بحكمه وقال له بدوي : والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا . . .

ولا تذكر هذه الحادثه الفردية عن النبي «محمد» مرت بي في كتاب من كتب التفسير : « اجتمع النبي مرة مع عشرة من البدو في المدينة حول قصعة ثريد . فقعدوا يأكلون وكان النبي يجلس القرفصاء . فنظر اليه بدوي منهم وسأله : اتكبر علينا يا ابن عبد الله . . . ؟ فقعد النبي وقال اعوذ بالله ان اكون من المتكبرين » .

هذه الحادثة الخلقية النموذجية تعتبر حداً يفصل بين قيمة الفرد الشخصية وبين مكانته كقائد قومي . حينما تمتد الاولى لترخي ظلها على الثانية، فيسيء القائد التصرف بكرامة اتباعه. دون ان مطلقاً نظن العمد في جلسة النبي المذكورة. لأن الآلاف المؤلفة الذين استنفرهم محمد الى الموت ، نصرة لدينه . لم يكن هذا البدوي الا فرداً مغموراً ـ على الاكثر ـ بينهم . ولكن الاستجابه للدعوة المقيدة بالتعاليم والمبادئ هي شيء آخر غير طغيان السلطة الفردية

ذات الحقوق المجهولة . حتى لو كانت شخصية الفرد هي مصدر التعليم ـ كما في المثال المتقدم ـ اذ يستجيب الفرد بالتعليم لصوت ضميره العميق ، فيعبر عن اطاعته له باطاعة نفسه . حيث تتذكر انه لا يسيطر الصنم العثماني المزين على فرد الا بموت كرامته وعميان بصيرته .

. . . . .

امثال خارجية

لا أرى بداً بعد ان اعطيت شاهداً عن حل الازمة بين نبلاء فرنسا والفلاحين في الثورة المعروفة الا ان اسوق مثلا معروفاً عن المانيا :

حيث اجتمع نبلاء الالمان وقرروا التنازل عن ثلث املاكهم للفلاحين

هذا الحادث لا يمكن ان تتصور وقوعه الا حينما تتحقق القرابة الجنسية بين «الايستوقراطية» والطبقات الشعبية الاخرى . حيث تموت عوامل الجشع القاتلة ، وتعلن العبقرية القومية في المواقف الحاسمة عن نفسها ـ كما تحدثنا ـ بالتضحية .

واذا قارنا بين الحل الذي اعطته روسيا في الثورة البلشفية وبين تطور حقوق النبلاء والطبقة الشعبية في انكلترا ادركنا بعمق الى اي حد لعبت وتلعب هذه القرابة الجنسية بين انواع القيادة (الاريستوقراطية) وبين الطبقات المذكورة من دور خطير وما تعطيه من نتائج حسنة او سيئة عن شعب ما .

ان هذا يدفعنا للقول : ان مستقبل امتنا والأمم مرتهن بازمن الذي تستطيع فيه هذه الأمة ان تنجب طبقة من القيادة القومية ، تحفظ اخلاق امتها وتتقدم باهدافها في مختلف المراحل المتجددة :

. . . . .

ما هو دور الثروة في حياة هذه الطبقة ؟

لقد حددنا دور الثروة المادية في نظر العرب في الفصول الاولى ، وليس لنا ان نزيد على المفهوم او نحوله عند ما نتكلم عن دوره في حياة الطبقة المختارة ، الا ان نؤكد تعمق هذه الاحكام في شروط حياتها العامة .

فاذا كانت الثروة تهيء الحياة الخاصة وتقلل الجهود الجسدية لكسب المعيشة ، فان الثروة الكافية ستكون ضروريه لتنظيم حياة هذه الطبقة المبرزة المتجردة . لانه لا قوة من القوى الخارجية ، ولا شعور داخلي يمكن ان يلتصق او يبدو على هؤلاء الافراد ينسيهم انفسهم في مجال الجشع المادي .

وعلى الرغم من الاعتراف الصريح باساسية العامل المادي كشرط اولي لتنظيم البنيان الاجتماعي فلن تجمد تلك النفوس الكبيرة في قوالب وسائلها . فيقف نيل مقاصدها .

اقول ذلك وانا استعرض الحوادث البارزة في تاريخنا القومي ،

حيث لم تكن الثروة المادية الا جسراً يعبره الفرد لتسهيل حياته والتدليل على تفقهه ومروءته . ولهذا كانت الاسر العربية البارزة تحتفظ بتقديسها الروحية في عين شعبها مهما الحف عليها العوز المادي ، مما دل على اصالة الدوافع والفضائل الاخلاقية في نفوس الأمة .

وليكن في المقارنة التي سنعرضها سوء الاختيار بين النزعة المرسومة حدودها عند امتنا وفي ساحة امية اخرى . حيث نرى انفسنا مجبرين على خدمة الدراسة الحالية .

بينا لماذا تقف الفعالية الداخلية عند الطبقات الاقطاعية الغربية عند حد الثروة المادية والجهود المبذولة لجمعها وغايتها النهائية في نظرها ، مما ينتج عنه : ان اي فرد او اية عائلة كانت تفقد ثروتها المادية تهوي تبعاً لها وبسرعة خاطفة قيمتها الادبية الى اعماق النسيان والابتذال .

وهكذا تنتصر اعماق الحياة الداخلية في امتنا بافعالها المختلفة فتبني قيمتها ـ خلقاً وتمثيلاً ـ على دوافعها العميقة الحرة وغرائزها المشتركة البانية ، تحقيقاً لانسانيتها الخالدة .

٧ كانون ثاني سنة ١٩٤٦

الفصل السابع

ايضاحات جديدة

« العودة الى الذات سر الهداية ... »

- متصوف عربي -

انتهى بحثنا الى ان طبقة « اريستوقراطية » في صفوفنا لا تعني الا الطبقة الاقطاعية ذات الثروة المادية . فليس لها تربية خاصة او تقاليد وراثيه تجسم معنى انسانيا ما كما لا يجمع بين عائلاتها - من وجة نظرنا ونظرها - الا غرابتها المشعورة وعداءها لامتنا العربية .

فمن يفقد ثروته من هذه العائلات يهوي بلا تردد الى اعماق النسيان لأن العوامل المادية المحضة التي انشأت صلاتهم المزيفة مع السكان لا يلبث زوالها ان يجر معه قيمهم الى الهاوية . لذلك رأينا هذه الطبقة في البلاد العربية تلتهب شهوتها الى (الحكم) والثروة بأباحية غريبة . فما للروابط والقيم الاجتماعية المقدسة اثر في نفوسها الفقيرة . واذا كان لهذه القيم حياة فهي ما تزال في طوايا الضمير الشعبي وليس في رؤوسهم الحمقاء .

لكن تاريخها ما زال يعطي صفة (الفعالية العامة) في شتى الميادين والسبب في هذا التطفل على حاجاتنا ان الطبقة الاقطاعية في التفتيش دوماً

على اقنعة الفضائل الشعبية لتستر نواياها ورغائبها للتسلط المستبد .

واذا عدنا لفحص تاريخ بلادنا السياسي منذ الحرب العامة الاولى وجدنا انه لم يتقلص ظل الاستعمار الاجنبي الا قليلا عنها وفي مناطق دون اخرى .

ولا أتحدث عن المناطق السوريه ، لاعطي نتائج أملاتي خلال الخمس السنوات الاخيرة ، مما لا يختلف الا قليلا عن اوضاع العراق او مصر مثلا .

اذ رأينا ان السلطة الفرنسية لم تتقلص عنها في الحقيقة الا حينما احتل (الالمان) فرنسا . ومع ذلك فقد كانت كراسي الحكم الداخلي تحت رحمة المدافع الفرنسية وتصرف يدها . في حين كانت هذه الطبقات خلال الربع القرن الاخير تحتشد في وظائف الدولة كالجراد النهم ، وتتناوب عائلياتهم على كراسي الحكم بلونين ظاهريين :

المستخدمين العلنيين في الدوائر الفرنسية . واللون الثاني : هو الفئة التي احتلت مركز الفعالية السياسية ـ كما تحدثنا ـ المثلى في الذهن الشعبي لتصعد كراسي الحكم ـ بقناع الوطنية ـ عقب المعارك الدموية الطارئة على العمل السياسي .

فعلى ممر الادوار المزيفة لم يتقلص في الحقيقة ظل السلطة الاستعماريه شبراً واحداً مما لا يعني الا انه : لا ممثل مقنع من فريقي الجناح ولا مجموعهم قد ركز رجله في الحكم بعد انقلاب بنته برامجه وافكاره او ثورة افعمتها

فعاليته لانقاذ الحياة الشعبية .

غير انك تضحك اذا حالت المهازل المصطنعة والادوار (البهلوانية) التي اوصلت هذه الطبقات الى الحكم رغم انف الدولة المستعمرة .

لانه اذا كان مد السلطة الاجنبية لم يعقبه جزر على توالي ربع قرن في بلادنا ، فهل كن من المعقول ان يصعد هؤلاء الدجالون كراسي الحكم مرات عديدة ، جملة وافراداً او ان تمتلىء وظائف الدولة بعائلياتهم واذنابها ويبتلعوا اموال الامة سرقات ورشوات علنية فاضحة تعيدنا توا الى تذكر الادارة التركية ، اكان يمكن ان يقع كل ذلك على مرأى ومسمع من الدولة المستعمرة الجشعة ويبقى اجزاء هذه العائلات في وظائفهم بعد سقوط رؤوسهم عن الحكم ويكونوا في الواقع اعداء حقيقيين لسياسة الاستعمار وخطراً عليه .

ان بروز (حمال) في الشارع يحمل شبح العداء للسلطة يؤدي في كل البلاد التي حكمتها فرنسا الى المقصلة . غير انه على ممر الادوار المختلفة ثبتت دعائم هذه العائليات مادياً وحكومياً .

فاذا اتخمت اجوافهم وتوسعت اقطاعاتهم ، وامتلأت وظائف الدولة منهم ومن اذنابهم فما ذلك الا على حساب الضحايا العمياء التي ماتت ، دون ان تتأكد من فضيلة موتها .

ان هذه العائليات (الاقطاعية تشكل في البلاد العربية كافة ، عصابة

المتزعمين وقادة الحركة السياسية . وتراها ابداً بترابط وتآزر حتى تفرق بينها (قسمة ضئزى) لمنهوباتها. وتختار بعضها عن معرفة وسفاهة ، وتتقلب في كراسي الحكم يوماً بعد يوم باقنعة ملونة على الرغم من تسفل قيمها الادبية وفضائحها الخلقية والادارية المتكررة التي انتنت بروائحها الدولة وكستنا ثوب العار من الرأس الى الخمص القدمين .

ان الادوار التي يعددها جمهورنا منذ المؤامرة على جلالة المرحوم (فيصل) وسلسلتها في عهد الاحتلال الفرنسي لصور لهذه الانانية القذرة والعصبية العائلية التي تقف دون تقدم شعبنا وحريته .

. . . . .

تسكن هذه الطبقات المدن الكبرى، وتلعب ادوارها بالتعاون مع الاستعمار الخارجي بعضها سراً وبعضها جهراً . فلا يمكنك ان تتنشل من وهدة الخيانة فرداً لا ينتسب الى دولة اجنبية ، لتصبح هذ المدن كسد منيع في وجه اي موجة تحريرية مخلصة تحييها طبقات الفلاحين والعمال الريفيين الحية .

. . . . .

تترجم تلك « الاريستوقراطية العقارية » عن نواياها باساليب تالية:

قلنا ان الانانية المتصلبة، تدفع جميع الافكار المثالية وتقتل الاحساسات العالية التي تنبتها الطبيعة الانسانية . فهي تظل في حرب مع الاوضاع المتجردة

التي لا تتركب في مصلحتها الخاصة . ومن هنا أتت مقاومة هذه العائليات للحركات التحريرية والافكار القومية المخلصة لانه - كما قلنا - : كل دعوة قومية هي توجيه روحي له هدفه في رفع المستوى النفسي الشعبي في العصر. وما هذه النتيجة الا الخطر المريع الذي يهدد (اربستوقراطية اقطاعية غريبة) بالانحلال والموت .

تبدو لنا مقاومة هذه الاقطاعية للتفكير الحر وللسلوك المستقل ، المنبثق عن وحي النفس ذات اسباب اخرى .

لان بنيانها الداخلي اللئيم، قد افرغ في القالب الشخصي المحدود المغلق ، فتمنع على استنشاق الحريه كما يتمنع مستنقع الاقذار عن قبول النسيم المعطر .

لذلك كانت متصلبة على قدميها النفعي لتحافظ على اسباب بقائها .

واشد ما تتكاتف عندما تتفتح الشبيبة الشعبية عن نزعة روحية حرة. حيث ان حيوية الشبيبة المتألقة، توجه فعاليتها لتكوين نفسها بوحي المستقبل. فهي تتجه نحو العصر لقيادة امتها . ولكن بنيان هذه الطبقات الاقطاعية الغريبة وعناصرها لا يسمح لفعاليتها ان تتحرر من قيودها وقوالبها القديمة لتطبعها عبوديتها الداخلية ابدياً . فتراها ابداً عدا عن تلبسها بجزئيات هذه القوالب، فانها لا تبدو في مظاهرها الا بما يرضي العامة. فتشتد بتقديس المعتقدات الدينية - مثلا - وتدافع عن خرافة سائدة بنزق وجهد شعوري

او لا شعوري . فهي تحيا من وجهة نظر الاغلبية السائدة لان همها تثبيت الوضع لبقائها لا تحريره وتقدمه .

انه لا اندفاع عميق متحرر يستطيع ان يشق غطاء انانيتها الكثيف ويصعد متحرراً الى سطح الشعور ليعلن عن اصالة النفس وسيادتها. ولذلك ما ازال اؤكد ان المعرفة ترجع الى المملكة الخلقية . لأن التبدل المستمر يعطي السيطرة في النهاية الى المقدرة والكفاءة المبدعه . ولكن هذه الطبقات واذيالها الغريبة تتلبس باحقر الخرافات والاساطير بل تحفظها بالدماء - دماء الشعب طبعاً - لحبس العقلية الشعبية عن التحرر ، ولاستخدام ايمان الجمهور بمعتقدات اسطورية او تقليدية آلة تحارب الشبيبة العربية المتعطشة ابداً الى الفضيلة والحقيقة .

لذلك استنتج - كما هو حاصل بالفعل - : ان كل معتقد قديم يسنده صنم اجوف متعصب من هذه الطبقات اللئيمة .

وابعد من ذلك : الى انه لا يمكن للشبيبة العربية ان تتصلب على تقليد ميت وتدفع الافكار الحية بعد وصولها اليها كما لو يفضل الجنين بعد ولادته الى جوف امه . وما ذلك الا لاسباب نفسية واضحة افصلها ايضاً .

لأن الجمود : ليس هو اي امر آخر الا انقطاع الصلة بين الشعور والحياة الداخلية . فأن تفتح هذا الشعور بالمعرفة الخارجية ، يعزل الروح

النمو اذا كان الشعور يجول، متوسعاً في العالم الخارجي مستقلا عن صميمه. ولذلك اما يبدو صاحبه تاجراً بافكاره واما متحجر العقلية.

وما الابداع الا الصور التي يتجلى فيها هذا الشعور الواضح ممتلئاً بالعاطفة العميقة الملتهبة.

فعلمنا اين يكمن الجمود العقلي الآن. ولماذا هذه الحثالة المحرومة من المواهب والغنى الروحي تتلبس الاشكال الجافة وتلتصق بالتقليد السائد لتقبض دون عناء على كلمة (الفرد المشروع) الوجود الذي يعيش (محترماً) مسالماً في نظر العامة.

والآن يجب ان نبين لماذا هذه الفئات تتعاون مع السلطات الغريبة على البلاد التي تتوجد فيها.

١ ـ لأن غرابتها الجنسية والنفسية عن الشعب ـ شعوريا او بدون شعور ـ تقف حدا لتفاعل العواطف بين الفرد وبيئته وبالنتيجة ليحيا الفرد باهداف امته العميقة والمسؤولية الناتجة عنها.

٢ ـ ان البنيان (النفسي ـ الطبيعي) هو بنيان حر، يتفتح بالتجارب والافكار مع الزمن على نزعاته، فينشيء مبادئه التي تحقق وجوده كفرد في مجموعته. ولكن نفسية الطبقات الغريبة تنقبض على ذاتها لتفتش على مسند خارجي ذو نتيجة ماديه تبيعه نفسها.

٣ ـ ان افق القيم الخلقية والفنية، الذي نسجته غرائز واخلية الأمة المبدعة لتحيا فيه العواطف والمشاعر. هذا الافق يضيق ويعتم في نظرة

الفرد الدخيل ليعجز عن تمثله وليرفضه ، مفتشا على قوالب فضائل العبيد الثابتة، وحكمة التعساء البليدة، فتنحصر فعاليته الداخلية ابداً بما هو ثابت وسائد، وعمومي كي تخلق منه هذه العوامل في النتيجة، فرداً لا يتجانس مع مجتمعه ولا يحظى ايضاً منه بالتقدير العميق .

هذه الحثالة ، تعيش مشتقة او موحدة، عائلات او قوميات مغلقة، بين صفوف امتنا و كل الأمم باخلاق رعاع الامة وبلدائها . اما حرية سلوكهم ، فتبقى محدودة ، لانها توقعهم ابداً بالشذوذ المستهجن. فيفتشون في اطار هذه المسالك على قوالب التقدير والمعيشة التي لا تثير انتباه المجتمع. ولقد اعطانا سلوك هذه العناصر مثالا بارزاً في العداء القومي بعد الحرب العامة وبرهنت عليه وقائع الامم الاخرى .

فانتهي للقول الكبير : كما يندفع فرد للخيانة بالتآمر شعوريا مع الاجنبي على مجتمعه كذلك يسعى اليها حثيثاً دون شعوره فرد غريب آخر على الامة ، وقد ينتهي اليها وهو ينوي خدمتها ايضاً .

لذلك ارانا معشر البشر محكومين سابقاً بما جهزتنا به طبيعة اجناسنا من الغرائز والكفاءة وليس احد منا سيد مصيره الا في اطار اصله الجنسي .

. . . . .

تتوزع هذه العصابة الاقطاعية توزيعاً عادلا في المدن والقرى وعلى

الطوائف الدينية المسلمة المتعددة . واما المسيحية، فان وضعها الديني الخاص قد ترك علاقاتها في ادوارها المختلفة في ارض بشرية اخرى . الا ان (خصوصيه) بعض الطوائف المسلمة ضيقت او حدت صلات ودخول عناصر دون اخرى . واعني ما اقول :

توسعت علاقات التزاوج بين العناصر التركية (والسنيين) اكثر من الطوائف ، الاخرى. اذا لم تكن مقطوعة بينهما . وفعلا ؛ فان العائلات الاقطاعية المتنفذة بين صفوف هذه الطائفة ترجع اكثرها الى الاصل التركي المحض فالكردي وملحقاتها.

وقد تيسرت لنا معرفة دقيقة عن هذه العائليات الاقطاعية في سوريا والعراق ومصر ما تزال تحفظ اصلها ان لم تتذكر تاريخ هجرتها والوظيفة الحكومية التي قلدتها اياها السلطة التركية .

غير ان الطوائف الباقية لم تسلم من دخول العصابات الغريبة التي انتهت بها التقلبات السياسية على عهد المماليك والايوبيين والجركس الى تزعم هذه الطوائف الدينية الباقية . ذلك ما يمكن ان نشاهده بكل وضوح عندما نستعرض قائمة المتزعمين بينها ونفتش على حقائقها الفردية.

اذا اوجزنا في بيان النقطة الاخيرة ، فما ذلك الا لنعطي مثالا واقعاً عن العصابات العائلية المسيطرة على قبائل جمهورنا العربي الحزين. ولاصف بنيان هذه القبائل والطوائف النفسي، مما يعتبر في ذاته خطوطاً رئيسية

لنفسية سكان الارياف العربية .

١ ـ ان جماهير هذه الطوائف تسكن القرى البعيدة او الجبال المنيعة، التي تشكل بيئة دينية واجتماعية بمنأى عن روحية المدن ، تعيش اكثرها على الزراعة .

٢ ـ ان طبقاتها الشعبية تحفظ في مزاياها وتقاليدها طابعاً عربياً جاهلياً تنطق به ملامحها المتآلفة واخلاقها ، وتنم عن الصفاء الداخلي وقوتها النفسيه . وربما كان لبعض تعاليمها الدينية اثر في استعدادها السريع للتحرر الذهني ، اذ ان الامثال من الاشخاص ، التي لاقيتها بين هذه الشبيبة كنت تحمل اكثر من الافكار ثقتها بطالعها واخلاصها الروحي .

بل ربما يعود ذلك الى الحياة القروية التي يحياها سكان ارياقنا. هؤلاء الفلاحون ـ بكل معنى كلمة الحي ـ الذين يعيشون تحت اشعة الشمس او بين الاحراج وفي السهول الفسيحة ... تلك الطبيعة المثلى ، التي تزدهي بايحاآت لا تنقطع ، توسع افق الحياة النفسية وتفتحه على مشاعر خفيه لا يعرفها سكان المدن الكثيفة .

فاذا امتحنا بنيان المدينة ، نرى المسافة بين ارياف حية ومدينه محصورة مكبوتة . هذه المدن التي تضيق في كل الكرة على سكانها ، فتخنق اشعة الحياة الداخلية ، وتسمم مشاعر ابنائها بالتقليد والخضوع للضرورات .

افليست الملامح المطموسة ، والخطوط الخارجية الفامصة ، المرتسمة على محيا السكان في اكثر المدن (الخليطة) ومدننا ـ هي اثر لضمور المشاعر

العفوية في افرادها ، وموت المعاني بين الاسارير الرخوة . تلك الاسارير التي تتفتح وتترابط لتسم ابناء الارياف والقبائل العريقة بسمات مهابه ومحبوبة .

. . . . .

اذا كنت ارجيء هذه الدراسة الخطيرة الى التخصص والتفصيل فأني اعود لاقول ان العائليات المتنفذة بين الطوائف المذكورة وفي مناطق الارياف العربية وبصرف النظر عن اصلها الجنسي ، لا تتوانى تتعاون مع السلطات الاجنبية استبداداً بطوائفها من جهة ، ودفعاً للخصومات والاعتبارات السياسية المحليه الاستعمارية .

ان كل ما امكنني ان اجمعه من معلومات وملاحظات عن هذه العائليات المتنفذة في الارياف - في (العراق وسوريا) - خصوصاً كان يدل ان عصبيتهم العائلية او الطائفية التي يتذرعون بها ليست الا سلماً لاخس الاطماع المادية ووسيلة بارعة لاستثمار بيئتها بقساوة واباحية لا يرتكب ادنى منها اي عدد آخر لامتنا .

فليست حاجة هذه الطوائف والمناطق والقبائل العربية لهدم اصنامها الخائنة المكالبة باقل من حاجة ارجلنا لنزع حذائها المتأكل البالي .

ان احلامنا تعني الاكثرية السائدة في القيادة من هؤلاء المتنفذين الغرباء . اما الذين يعرفون عروبتهم الجنسية بثقة وتأكيد ويبرأوا من

العيوب المتقدمة فهم موضع فخرنا وتقديرنا العميقين. لأي مذهب او طائفة انتسبوا - واما طبقاتنا الشعبية من الذين لا يعرف افرادها لهم اصلا غير الاصل العربي ولا يعرف ، فهم موضع عنايتنا العليا ، وفي سبيلهم نكتب رسائلنا ونجهد ارواحنا لنقدم لهم تضحية تدسية .

لي ان اتكلم عن عنصر بشري يؤلف وحدة اجتماعية منعزلة هو القبائل البدويه . غير ان حديثنا عنها ينتقل الى مملكة اخرى . فيتناول احياء هذه القبائل العربية النظيفة) التي يخلو بنيانها من عوج الملكات والطباع (كما قال ابن خلدون) . الاان تنقلها الدائم وكسلها العقلي - نتيجة لاسلوب حياتها - يحرمان امتنا من هذا النبع الحيوي المبدع في كل الميادين .

اما قيادة هذه القبائل ذات العلاقات السياسية المتقلبة ، ليست الا نتيجة للمطامع الخاصة التي تستبد بفعاليهم العامة . لذا لاتفترق عن المتنفذين الريفيين والمدنيين في انحطاط اهدافها السياسية .

ان تثبيت هذه القبائل في الارض ضمن شروط (المدينة الحديثة) القومية مرحلة فاصلة بين خلقية المدينة الحالية المنحدرة في مهاويها وبين التعالي النفسي الذي تبرزه عناصر النفسية النظيفة في المدينة العربية الجديدة .

ان باكورتها التي اعطاها اشتراكها المحدود في الحياة الاجتماعية في احدى المناطق العربية (العراق) يبشر - ضمن الشروط الملائمة - بفيض حكمة جديدة .

بقي ان أتكلم عن الملاحظة الاخلاقية المتممة التالية :وادعوها لكم (المفاخرة بالاجداد) لتتبينوا علاقتها مع النقط التي بحثناها اخيراً .

ان هذة الصفة البارزة بين العائلات (الاريستوقراطية) ، ليست في الواقع الا احدى صفات الاسرة العربية في المجتمعين العربي الجاهلي والعربي الاسلامي . تقوم على الثقة العميقة بعامل الوراثة الذي ينقل الى الابناء صفات الاباء . وهي نتيجة طبيعية جداً لقانون (الاصطفاء) و(سلامة الانساب) .

هاتان الصفتان الاساسيتان في المجتمع القومي النقي المبني على الاسرة المؤمنة بقانون الوراثة - بكل معانيها - .

غير ان تزعزع البنيان الجنسي عند العرب ، وبالنتيجة انحلال قانون الوراثة - بالاختلاط - اصبح لا يعطي هذا الحادث اي حق بهذه المفاخرة الا في اطارها (العائلي الوراثي المحدود) . ومعنى ذلك ان التقاليد القديمة لم تعد مقبولة الا في تحقق بواعثها الاولى .

فاذا تمتعت العائلة بالحفاظ النسب ، ونقلت الوراثة اخلاق وكفاءة الآباء الى الابناء ، كان ادعاء المفاخرة مبرراً من وجهة التقاليد القومية . لكن تهديم هذه العوامل : « سلامة النسب » ، فانحلال «قانون الوراثة » القومية فغياب المشاعر النفسية القومية القديمة ، كله اصبح يعطي لهذه المفاخرة شكل الجريمة الادبية وحملها وزر آثامها ، ان لم يضاعف عيوبها.

هدا حكمنا علينا، فكيف بنا اذن عندما ننتقل الى ارض بشرية اخرى، ارض غريبة عن ارضنا القومية، اضاع ابناؤها جذور اصلهم في شتى الممالك، وفقدوا وحدتهم الاجتماعية الجنسية وتقاليدهم، حينما يعرضون مفاخر اجدادهم الثقيلة ويلصقون بانفسهم تهمة فضائل ومزايا اولئك الاجداد حينما عجزوا عن التمتع بها كانها ارملة تحن الى زوجها الميت حينما عجز الزوج الجديد عن اشباع انوثتها .

ان « المفاخرة بالاجداد » هي مفاخرة بمزاياهم وليس لها حياة في خلق العرب الا في تحقق فضائل الابناء في الاباء ـ كما قلنا ـ اي بتحقق قانون الوراثة الكاملة . لأن المفاخر ـ من جهة ـ يشعر بالنقص حينما يستدعي الماضي العائلي ليضيفه الى حاضره الناقص . وقد لاحظه شاعرنا القومي وأباه حينما قال :

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي ، وبنفسي فخرت لا بجدودي

ثم عاد يقول ليصل مفاخر آبائه في بداية تساميه :

وبهم فخر كل من نطق الضاد وغوث الجاني وعوذ الطريد .

غير ان استعادة الماضي تفقد خطرها في اصالة النسب ، فتحقق قانون الوراثة والاصطفاء بين اعضاء الاسر الواحدة في المجموعة القومية . لا بل ليس لها عندئذ الا تقديس العربي لقوميته في اعتبار جنسه وحدة عليا متواشجة الاصول، متتامة الاجزاء في انتقال الغرائز النقية فانبات الخصال الكريمة .

لقد اصطفت الجزيرة هذه الكائنات - طبيعياً ونفسياً - في غامض الازمان حتى اصبح انحدار فرد في الامة عاراً لا يمحى .

وفي الحقيقة : ان حداً واحداً يرد وصفه على مثال مناقض لخلق الاثرة القومي كان يعطل ماضي الاسرة ويلوث ابناءها . فكانما يهيج لطخة عفنة تتوسع كلما توسع نطاق الاسرة فبرزت ، حيث يلحق العار كل عضو فيها .

لا ظلم في هذه الاحكام : فكما يرث الفرد مفاخر اجداده ويباهي بها ، كذلك يسأل يوماً عن الاثام التي ارتكبها آباؤه . هذه المسؤولية المتقابلة ، العميقة ، لم يكن لها محل الا في نظام الوراثة الكامل - بالولادة - .

فترى الاباء يحفزهم ابداً المقصد النبيل ، فيحرس وجدانهم الاخلاقي سلوكهم ان يزل مرة في حياته - لأن خطيئة واحدة كانت تشكل اثماً لا تكفر عنه الا التضحية .

ان هذه الرقابة الداخلية ، التي تحفظ سلوك الاباء هي مسؤولية غير مشعورة منهم امام ابنائهم الآتين . كما ان حفظها في حياة الابناء هو واجب غير مشعور منهم وفاء لتراث الآباء .

غير اني اعود للموضوع لأقول :

اذا تيسر للطبقات العائلية الغريبة جد قديم يسترعي النظر ، فانه ايضاً لا حق لهم بعرضه . بل المباهاة به جريمة ادبية واجتماعية لأن المفاخرة الشائعة عند العرب ليس لها مبرر الا تحقق مزايا الاجداد بالاحفاد .

٢ ـ هذه المزايا هي صفات اخلاقية قومية مشتركة ، يجسدها الحفيد كما حققها اباؤه في حياتهم الاجتماعية او القبائلية مما ندعوه فلسفية (العبقرية القومية) التي عبر عن خصائصها الخلقية الشعر العربي بقصائده المشهورة.

في هذه الارض ، ولهذا السبب ، يفقد بل يُرم على العائليات الاقطاعية الغربية ان تلوث هذا التجلي الخلقي القومي « المفاخرة بالاجداد » .

الملاحظة الاخيرة :

ليس تحقق احد معاني (الاريستوقراطية) المتقدمة في الطبقة الاقطاعية الغربية واذنابها ، حتى في طبقة القيادة العربية نفسها؛ مما يسمح لهذه الطبقات بالتقدم امام الصفوف الشعبية اذا كانت الطبقات الشعبية نفسها ترفع الى نفس المستوى الذي تتمتع به القيادة في كفاآتها . واذا ذنت المسافة بينهما قريبة جداً . لانه حينئذ (حق التقدم) يفقد سببه الحقيقي ويصبح فرضاً واستعباداً لا يقبله الا العنيد الانذال .

فحق التقدم الامثل : لا يتعلق ـ اذاً ـ بالصفة وحدها بل بالشدة.

فاذا لم تقدم القيادة كفاءة نادرة في اتجاهاتها كان تقدمها ورفعها دلالة على انخفاض الفرد الشعبي وان بدت القيادة عضواً صالحاً ونافعاً .

لان الفردية العربية لا تقبل صنما بشرياً (متوسطاً) او (بارداً)

كقائد كبير اذا لم تبرز نزعاتها في ذاته عبقرية المبدع الاصيل .

ولقد اشرنا الى هذا الميل العميق ، وبينا في فصل (حياة المثل الاعلى) ما نقرره الان . وهذا الميل يفسر نفسه خنق الشبيبة العربية العصرية ونقدها للقادة الحاليين ويفسر بنفس الوقت ، تمنع الفردية العربية على الاطاعه والنقياد السريع بل امعانها في العصيان والعزلة مما يظنه السذج والغرباء (ميولا غير اجماعية) . والسبب الحقيقي ان العربي يحلم ابداً بامثل عالم ترتقي اليه الافعال الانسانية . فاخيلة البطولة الكبرى لا تفارق جوانحه ، ولا تمسخ في تصوره الحياة ابداً . فهو لا يمنح تقديره للآخرين . . كما لا يرى لنفسه حق المفاخرة والتقدم الا عندما يبدو امامه مثاله الذاتي محققاً في شخصيته او في قائده اروع تحقيق .

وبعبارة اخرى : ان المثل الاعلى ـ كحياة يطمح اليها ـ لا يسلس قياده لفرد اذا كان لا يرى فيه مجسم هذه الحياة المثلى على الارض .

فهو لا يتمنع ـ حماقة او انانية ، او نزقا ـ بفرديه جوفاء زائفة ، بل لانه لا يسلس قياده الا للبطل الكبير .

ذلك ما يفسر بنفس الوقت حوادث تاريخية عديدة : انه لماذا لم يظفر بدعوة النبوة الثلاثون الذين ظهروا على مراحل متتالية قبل النبي (محمد) . اذ ان هذه الشخصية الكبرى ملأت نفوس تابعيها بالمهابة والاحترام الذي جسده «محمد» باخلاقه قبل النوة وبعدها . تلك الاخلاقية التي اعز

ما صبا اليه الجاهليون في الحياة العملية قد توجهها الآيات العذبة التي اتت على لسانه .

لذلك اقول بلغة امتنا : لا يكفي ان يكون للقائد صفة الخلق الطيبة والمستقيم او عدم البلادة ... كلا. بل انه في الفروق العميقة بين الكفاآت يتمتع المبرز بحق التقدم والتقديس او لا يتمتع ، لتدلل امتنا على اصالة المثل الاعلى في روحها .

. . . . .

٨ كانون ثاني سنة ١٩٤٦

الفصل الثامن

ما هي شروط قيادة جديدة ؟

اذا كانت الفصول المتقدمة بيانا لقيمة الفرد الكبرى في التاريخ ، فان هذه القيمة لا تبدو باكمل معانيها الا في البيئة الاجتماعية . لأن العظمة التي يمثلها فرد فتمنحه الخلود ، ليست في الواقع سوى اشعة امته التي اغنت حياته ورفعته فوق ذاته . فليس لمظهر بطولي جذور في غير الوجدان الشعبي هذا المظهر الذي لا يعبر بالحقيقة الا بالوحدة الجنسية بين الفرد وامته .

خارج هذه القرابة التي تنطوي على امكانيات التجسيد في المستقبل لاتبحث ابداً القيم الفنية والخلقية حتى ولا المعرفة العليا .

لذا نقول : انه ليس امكانية على وجه الارض تنجب قيادتنا القومية المثلى في مملكة حية اذا كانت هذه القيادة من جنس آخر غير الجنس العربي .

ان مفاهيم امتنا الاولى تدحض وتضحك من كل محاولة اخرى . فاحياء هذا الماضي في الحاضر يتأكد بكل قوة عندما نريد ان نندفع الى الامام مرة جديدة في العصر الحاضر .

الصفة الثانية : ان كفاءة ما متحققة في فرد لا تبرر ـ كما قلنا ـ تقدمه

للقيادة . لانه كما قلنا لا خلية في مجتمعنا العربي القديم الا وكانت تحيا بصفات المجتمع العليا المشتركة . ولكن في «البروز» وفي «الشدة» التي تبدو بها الصفة ، اي بعمق ما يحقق الفرد اضافته الشخصية على النزعة . وذلك ما يبرر لقب «القيادة» ويشق لصاحبها طريق البطولة بعزمه وعبقريته .

غير ان انحطاط وتبدد مركز حياتنا النفسي يترك لاقل صفة قيمتها البارزة . لأن اضعف تجمع داخلي يعطي شبح (الاتجاه) بالنسبة للواقع فيلفت النظر اليه كانما يشير الشاعر العربي الى مناسبة مشابهة في قوله :

يقضي على المرء في ايام محنته بأن يرى حسناً ما ليس بالحسن

واذا عدنا الى الفضل (المثل الأعلى) تبين لنا هبوط النظر والمقاييس او (المنطق) الشعبي بهبوط حرارته النفسية .

فحق التقدم او (الزعامة) المثلى يتدىء ابداً في ضمير الطبقات الشعبية ثم يتجسم على خطوط الحياة الفردية حتى يبز الفرد اقرانه ويعطينا المثل الفريد .

فاذا خرج الفرد على بنيان امته ضل واذا تعب على طريق مثله لم يعتبره مجتمعه عضواً سيئاً غير انه لا يستحق العبادة .

النقطة الثالثة : ان الوراثة بالمعنى الخلقي والعقلي لا حياة لها خارج اطار الاصالة . لان الوراثة نفسها حدود الاصالة في نظرتنا القومية . ومعنى ذلك : ان البنيان العضوي الذي يحمل مقومات حياته الطبيعية . وتبدو

افعاله النفسية تعابير عن مقوماته (الغرائز والاحساسات) يعطي الى كل منتوجاته الاحياء المشتقة عنه (بالزواج) هـذه المقومات وبالتالي : صفاتها النفسية . كذا تفرض الحياة دون شذوذ على ممالكها الشاسعة ضمن الشروط الطبيعة .

غير ان الطواريء المخلة بهذا البنيان العضوي (في عمليات الزواج) في دائرة اوسع من القوم الواحد تخل بالقانون الحي فادخال عناصر غريبة على اي وحدة عضوية يشوش الفتها كما يبلد احساساتها الدقيقة الفردية . فاذا كانت قوانين الوراثة - بالمعنى القومي - صادقة فهو في اطار الاصالة.

فالكائن المشوه - جنسياً - لا يمكن ان ينقل صفاته الفريدة الى احفاده حيث تتوارى الميزات الفنية الدقيقة بتعطيل الاصالة .

واقصد الحكم التالي : ان وراثة القيادة هي ممكنة بل مؤكدة في نظر العرب ، وانما في اطار الاصالة . وليس التاريخ الجاهلي والاسلامي - بشريا - الا تكرار الحوادث مشابهة تدل كل منها على قداسة الحكم الاول وتعلمنا : بعد ان فقد العرب وحدتهم القومية كيف ماتت بعدها (الاصالة العائلية) المحدودة بل كيف اصبحت كل (اصالة عائلية) مزعومة في طريقها الى ضمور النزعات فانحلالها فالجنون .

فاذا انتهت (الاصالة العائلية المحصورة) بضمور الملكات او انحلالها فان اي بروز عقلي لا يمكن ان تبدعه العائلة المذكورة . لانه بانحلال

وحدة البنيان الثقافي ايضاً بل بفساده ، لم يعد العالم الخارجي ميداناً تتفاعل في ساحته نفسية الفرد مع امته لتبرز ميولها العميقة في مناحي عبقريته.

ان الدراسة الحالية والنقط التابعة ليست لغاية حاضره الا في مصلحة دولة المستقبل القومية .

فبعد ان تقطع امتنا المرحلة الانقلابية المرسومة حدودها في مبادىء الرسالة الحالية فتتبوأ قيادة فروع حياتنا قيادة تحفظ في نفسها المتينة مثل امتها وتتمتع بفعاليتها الذهنية الحرة لوضع النظم الجديدة .

واعود لأنبه الى سر نقطة قوية :

عند ما عالجنا اسباب انهيار امتنا ووضعنا يدنا على الداء المزمن في طبقه الاقطاعيين الغرباء عن نفسيتنا ومصالحنا وبقية جماعاتنا التي تشكل بيننا جنسيات تتعصب لها سراً وجهاراً وتتآمر مع كل عدو اجنبي على مجتمعنا العربي لم يكن كل هذا معناه - كما يبدو لاول وهلة - ان علاج الداء يبتر عضوه . اي اخراج هذه الجنسيات او العناصر القليلة او القضاء عليها ، لذا كان احرى ان نوضح ارادتنا وهدفنا المتروكين للمستقبل .

اننا نطلب الى شعبنا ان يتقدم الى الميدان بعزمه لتنحية هذه الطبقات الاقطاعية الطفيلية عن قيادتنا التي انتهت بنا الى ارذل العمر . وان تتقيد فعالية جنسياتهم الغريبة لمصلحة العرب التي لا تتجزأ حياتها كما لا تتجزأ المؤامرة عليهم في اي بقعة من بلادهم ان تكون على كافتها .

هذا الدور العظيم مرتهن تحقيقه باستعدادامتنا لانجاب فرديات تشق طريقها تحت الاخطار والمصاعب .وعندما تحرن انانية هذه العائليات الجشعة واجناسها الغريبة متمنعة ان تتنحي عن مراكز استبدادها فان النار والحديد حل فاصل في تاريخنا الحديث .

وبعدئذ تعيش هذه الطبقات واجناسها الغريبة معنا في ظل القانون وحرمة العدالة الاجتماعية بالمساواة التامة مع طبقاتنا الشعبية دون اي ميزات اخرى.

غير ان امراً واحداً يصبح خطراً مميتاً : هو ان تستثمر هذه الطبقات والاقليات الجنسية حريتها فتسيء الى الامة في احدى فعاليتها : الاقتصادية والسياسية ومن ثمة تشرئب للتحكم واستعباد شعبنا مرة اخرى .

عندئذ فقط : كل فعالية عدائية تقوم بها هي خيانة لمقدساتنا ومصالحنا الحيوية لا تنجو من الموت .

اني اوضح الضرورات العملية - نظريا - دون ان اعلم الى اي يد سينتهي امر بلادي ومتى تتسلم زمام امتي قيادة شعبية منا تبني دولة المستقبل القومية .

. . . . .

٤ - هل لي ان اتنبأ عن كفاآت المستقبل المثالية ؟

قلنا انه لا حياة لامتنا الا في عودتها الى ذاتها الداخلية لتتصل في وثاقها النفسية . فهل هي الاعملية النفسيات الكبيرة التي تنجبهم امتنا

في آتي الزمان .

(آ) : اذ يتميزون بعمق وحيهم الداخلي . ويستجيبون الى صوته الخفي انهم يطيعون هذا الصوت اكثر من اي قول آخر يردده زمانهم . لا بل يحتقرون المعلومات والمحاكمات التائهة المقدمة اليهم .

هذا الاحساس الداخلي يجعلهم يتماس مع حاجات امتهم وينكشف حدسهم عما يتمخض به ضميرها .

(ب) : لا تمنح التجارب هذا (الاحساس) ولا التعليم . انه اثمن موهبة الهية على الارض انه «الصوفية» العميقة «والشعور الديني الحقيقي» عند امتنا العربية . ينبثق عن ظلمات الضمير ليعطي كلامنا شعوره بنفسه .

«ج» : انه قائد شعبي ذو احساس عملي يمثل مبدعاته في حياته . انه رجل الدولة ان يعمل كذات كاملة . ليس كموظف . ولا كتاجر . ولا كعالم كبير انه لا يفكر بمقدار ما يستلهم نفسه، تتأتى اخطاؤه من شكوكه بصدق الهامه .

«د» : انه شخص نموزجي . يبني افكاره بوحي دوافعه فيحقق الاتصال بين الخلق القومي وعقلية العصر . الذي يحياه . فهو عدو الجمود وعدو الشذوذ معاً . فاصالة دوافعه ووضوحها في شعوره تتركه مستغرقا بمبادئه بمقدار ما يبديه مجتمعه لاول مرة من تنكر لها فيتآحد مع نفسه كلما ابتعد عنه العالم حتى يشتعل وينير فيخلق امته خلقاً من وجهة نظره .

«هـ» : ان ما يدفعه الى الحياة «دوره» وليس « الزمن » الذي يعيشه ان خجله من العار ليس اقل من خجله من انانيته .

فلا تستغرق روحه في شكل ابتدعته فعاليته حتى يعود الى ذاته فيخرج بشكل يعبر عن نمو حياته النفسية مع الساعة الاخيرة .

ان الفرد نبته : جذورها في الحلم واغصانها في الواقع .

فهم منشئون : لانهم يفتحون صدورهم الى تيارات الحياة الحرة تتفاعل في نفوسهم ، اذ لا تعكرها المواد الغريبة بل تحيا او تموت .

وهم منتجون : لان وضوح شعورهم ابدأ في معرفة الحقائق الخارجية ليبني مبادئه بوحي حاجات مجتمعه .

انهم فلاسفة . . او رجال دولة . . . او محاربون او علماء . . او شعراء . . فهم نماذج مبدعة تجسد روح امتها بعواطفها وافكارها واهدافها الدقيقة.

فهم صورة مثلى للانسانية في اتجاه الذات .

. . . . .

٩ كانون ثاني سنة ١٩٤٦

الفصل التاسع

الدعوة الجديدة

« . . . فالى من ننتسب . . . ؟
« ـ الى اهدام الشرائع في كل عصر »
لبناء شرائع جديدة . . » .

ـ كاتب عربي »

ان الصفحات المندرجة في الفصول الأولى تبين بتوسع الدمار الصميم في امتنا تحت الكوارث الخارجية .

فلم يكن لسؤال «الانظمه» محل في بدء الدراسة ، لان بصيرة المجموعة الشعبية ـ في حالها الحاضر ـ تعجز عن بيان عللها فتعيين اهدافها . لأن باعث السلوك الفردي الا وهو: الانانية ، وغموض حياتها الشعورية يقطعان الطريق على كل معرفة منشئة .

فلا عجب اذا وقع شعبنا صريعاً بين عقاقير الاهداف والنظم وهو يفتش على اسباب سلامته ـ عبثاً ـ . لأن فعاليته خارجية ابداً عن حياته الداخلية ، كمن يرقب الافق ليقبل نجمه .

وقد بدا هذا الفراغ الروحي عجزاً عن كل اتجاه في السنوات الحرب الاخيرة . فقد رأينا جماهيرنا العربية تقتسم مصير الدوا ، المتحاربة وابطالها

بغلو مضحك . متصادمة متنافرة على حساب الصدف والوقائع الخارجية مما يثير حزن الفرد الكبير ان لم يكن احتقاره لمصير امته .

لدليل هذا الخروج القبيح على الفراغ النفسي الذي فصل بين الصميم والشعور ، فشرد الشعور تائهاً بين الرمور الميتة .

عبثاً نحاول ان نرد هذه الجماهير التي فقدت رشدها الى الصواب او نصلح اخطاءها الفردية ، كمن يرمم جوانب قصر تزعزت اركانه وغارت دعائمه في باطن الارض ، فكل ترميم نضيفه ينقلب عبثاً على ضعف الاسس الاولى .

فالخلاف ليسمى على النظم والوان الاصلاح النظرية في الدرجة الاولى بل هو خلاف عميق يعود الى نقطة البدء على ضوء الخطوط المرسومة لحياة المجتمع الحاضر .

لذلك اعود فالخص فحوى دراستنا واستنبت الهدف من احشاء الحقيقة . هذه الحقيقة التي تفر حينما يخرج الفرد على ذاته لتخرب مملكته .

فاقول ان رسالتنا المثلى : هي عودة الامة العربية الى ذاتها لتتصل في وثاقها النفسية وتنوضع في حالة الابداع المستمر لاشكال حياتها كيما نستطيع ان نسمي الامة وكل فرد مبدعاً لحقيقته .

وما ذلك الا الهاب العاطفة القومية في صفوف شعبنا لايقاظ دوافعها العميقة من خمول الكبت والجهالة فيشق كل انسان بيننا طريقه الى فضيلته

الانسانية ومعرفته المثلى .

اذا لم نثر هذا السؤال في مطلع حياتنا الحاضرة ، جابهتنا كل معضلات الزمن بتعقيد لا يحل مطلقاً . وبدا لنا الشعب العربي كتلة موات ضخمة لا يوقظها صوت الحياة الحديثة ، بل كان معناه عملا مستمراً يعقبه فشل مستمر .

قبل البدء اقول :

ان اي تفكير يقصد ان يصبح حياة واقعية لا يحيا الا اذا ترجم عن حالات نفسية ملائمة . ومهمة الموجهين تجلية هذه الاسس العميقة لابتداع نظمهم ، فيتأكد قولنا الاول : ان الشعور اساس في المعرفة والعمل .

فالمباديء الاولى في رسالتنا الحاضرة تعبير عن الآلام الداخلية التي تتخيل تحقيق كل البدء منها تاما لوثاقة علاقته بالحالات المكبوتة .

هذه المباديء التي تنبثق بحرية عن طبيعة الشعب ، كان فقدانها في الماضي ـ عمراً او ضلالا ـ سبب مآسينا الدامية واطعمنا علقم جهادنا في الانحدار لا التقدم .

ان يقظة العاطفة القومية في هذه الصفوف المتنافرة هي فيض الهى في نفوسنا ليغسل القبح والكذب في حياة مزيفة لا تطاق .

وهي في نظرنا العقلي : اختصار للمجهودات الاصطناعية المرتبكة ، وخلاص من تناقض النظم وارتباك الموجهين . ليصطفي نظرنا الجديد

ساليب التربية واهداف الاصلاح وقوالبه ؛ حيث نعتبر يقظتنا ، فضلا عن كونها اعادة الزائح الى مكانه ايجاد مكان جديد .

نتائج

ان العودة الى النفس ، هي نواة التجدد المبدع للتلاؤم مع الزمن والاشياء . وما يقظة عاطفتنا القومية الا رفع امة بكاملها الى النور .

١ ـ نرفع مستوى الفرد الروحي بنبالة هدفه . لأن المباديء الكبرى تعلو بمقاصد الافراد حينما تحملهم الى افق المثال .

٢ ـ نفتح مغلقات المعرفة السامية . فتتجلى الحياة امام الفرد من زاويته الداخلية ليحيا بفكرته ويفرح بنشوة الايجاد كانما معرفته اكليل يتوج سعيه ويرمز الى ظفره .

في حين نرى المفكرين في مجتمعنا الحاليين يقبضون على افكارهم ومفاهيمهم كما نقبض على قطعة الجليد فتنقبض شرايين ايدينا وترتعد .

٣ ـ كما نوحد بين الحياة الداخلية وقشرتها الاجتماعية في الفرد ، كذلك نربط اعضاء الامة برباط مقدس يحيي المشاعر الانسانية ويصطفي المقاصد النبيلة ، فلا يتيسر الا للعبقرية القومية ان تقود مجتمعها .

٤ ـ ندفن القيم والتقاليد الغريبة والميتة . فيتنشق شعبنا عطر مقاييسه وتقديراته فتحيا نفسه في اتجاه دوافعه ورغائبه المهذبة . وهكذا نربط ماضي الاجداد بحاضر الاحفاد فتتحقق فينا وحدة الرسالة .

٥ ـ تندثر الانانية ، حينما تشتعل النفس بفكرتها . لأن هذه الانانية ليست مذهباً نفسياً وانما هي نهاية الحياة وجمودها . فلأول مرة نودع المواعظ وخطب الاصلاح والصلاح والترغيب والترهيب . . . فليس للفضيلة غاية الا ذاتها .

هذا المثل الذي ضربته امتنا في الماضي ، فقدناه حينما انحرف ابناؤها عن انفسهم فانتهوا الى الخلقية النفعية والعدمية الدينية .

٦ ـ يتحدد اختلاف النظر في المناهج الاجتماعية والفلسفية المعروضة وتموت سلبية المقاومة الشعبية ، ويزول خطر التصادم بين الحاكم والمحكوم. فليس لمجتمعنا لا بنيان عضوي ينمو بوحي غرائزه البانية على ضوء شعوره التأملي في عصره .

ان الاخطار الناشئة عن استبداد الدولة ، والثورات اللاحقة . . . وتعميم العدالة . . . ومعايير التقدم . . . والمساواة . . . حدوداً ومصالح . . تتساقط كل هذه القشور الجدليه حينما تملي عاطفة امتنا القومية المتأججة في نفوسنا حكمة الاهداف المثلى وانظمة الحياة التي ترتفع اليها انظار شعبنا في عصره .

كيف نحيي عاطفتنا القومية ؟

ان الطبقتين اللتين تتميز بهما المجتمعات : الجمهور الشعبي ومعاشر المثقفين : ليس لفرد منهما مفر من تعميم المنهاج عليه. لانه اذ اسنت الحياة

في كافة الشعب انحطت مقاصد جميع الافرادوخيمت عليه التعاسة الروحية. فما يتمايز فردان في امتنا من طبقتي المتعلمين وغير المتعلمين - بالمعنى الروحي الذي وضحناه في الفصول المتقدمة - فان هبوط الحرارة النفسية، وانحطاط المثل . يطبعان فعالية الطرفين (بالعادية) البليدة . انما يتمايزان الآن بمقدرة احدهما على استثمار الآخر .

غير ان الدعوة القومية تتبسط في عناصرها - محافظة على شدتها في الطبقات الشعبية - عند المتعلمين اغناء لذهنيتهم .

فكرة الدعاية

تستند الدعاية القومية : الى الاندفاع من داخل النفس لغمر العالم الخارجي بموجة الحماس وتحقيق ذاتنا القومية .

فهي ايحاء لا جدل . واثارة لا اقناع . واندفاع لا اتفاق . . . كما تنمسخ في رؤوس صعاليك المتكلمين .

فعلى القادة ان يشقوا الحجب وينفذوا الى اعماق الحياة الداخلية ليقودوا النفس بكلماتهم الحارة . فاذا لامس لهيب كلمتهم ساحة الشعور اتحد معها واضاء طريق الحياة العملية .

يقول الصياد: اذا اردت ان اصطاد وجب عليّ ان اعكر الماء في قعره. فلنتجه في قوله لنقول : اذا اردنا الاصطياد - بالمعنى الفكري - : وجب علينا ان نملك المقدرة الروحية لزعزعة بنيان البرد واثارة اعماقه العاطفية فعندما يهتاج ، يندلع حماسة ، فيكون بمثابة لهيب يحرق ما تراكم على نفسه

من قشور التعاليم والنظم الخارجية . وحينئذ تحتل مركز حياته النفسية وتلقنه تعليمك الذي يفتديه .

ان جمهورنا يندفع في تيارنا لتحقيق حلم المستقبل المنظم المرتبط وجوده بحياة عاطفته .

انما تتوقف النتائج الممتحنة سابقاً على امتلاك الكفاآت التالية :

١ ـ ان تكون متملكا زمام نفسك في كلامك .

٢ ـ ان يكون انفعالك عميقاً وصادقاً لتشق كلماتك الملتهبة طريقها الى قلب السامعين . وقد يرمز انفعالك الى غاياته قبل التعبير عنها .

٣ ـ ان تكون كلماتك جديدة على الاسماع تفسر معميات الضمير التي تركها السامع للمستقبل .

فكل مخلوق يقع تحت هذه المؤثرات الروحية تقوده الكلمة الصادقة لانها ترمز الى اعمق حاجاته .

واذا انتخبنا هذا الفرد انتخابا كانت الصفات التالية خطوط تفكيره.

١ ـ اصدق الافراد وحيا في اتجاهه .

٢ ـ النظرة الموحدة الشاملة للاوضاع .

٣ ـ الذكاء ليقدر على التكيف .

٤ ـ نفوذ البصيرة ليجلي الاسرار المكبوتة .

. . . . .

ان امتنا المتمنعة على الانقياد ، ذات العواطف الباردة ، لا تحيا الا

في اتون العاطفة القومية المنقذة . لتشيع في نفوسها حرارة الصدق الداخلي فتخلص بالمعرفة الكاملة .

لأنه حتى العجماوات لا تستطيع ان تقودها بالخرق والقوة الطائشة.

فاذا عدنا بنظرنا الفحص كفاءة القادة الروحيين (الموجهين) المصوتين على بضاعتهم ضحكنا واستلقينا على الارض من بلاهة ارواحهم وسطحية انفعالاتهم .

ان افكارهم وبشراهم هي : اطلاع غيرهم على مباديء ليست صميمية فيهم لذلك فقدنا بينهم البطل الحقيقي .

انني عندما استعرض تعساء الكتاب والمتكلمين منهم : اتصور كانني امام شرذمة من سعاة البريد . اذ يحملون الرسائل الى الكوة وينقلون رسائلها الواردة دون ان يتدخلوا بمضمونها .

هؤلاء المفكرون والموجهون الذين يعيشون على نقل الاخبار والدعوات الخارجية واجترارها ، ينتظرون العاصفة الداوية لترميهم في قبورهم هامين .

غير ان الظروف لم تسمح بهذه الفرديات .. فبقي شعبنا بكل البلاد يتدافع ويظلم ويصرف فعاليته خارج حياته .

. . . . .

واذا قصرت هذه الطبقة الخفيفة في تملك الكفاآت الفكرية فما اعجبني وانا اعود لافتش على كفاآت اخرى فأتقابل بالفرد المسمم

نفسياً وجنسياً .

ان ضعف اندفاعه يدل على انهيار عزمه الروحي. كما تدل براعته اللسانية على نمو شعوره وموت عواطفه .

هاتان اللطختان : تجتمعا لتعطيا الفرد الميت الشعور بالمسؤولية . انه احط فرد في المجتمع على الاطلاق .

حقاً ان الالآم الكبرى الناجمة عن سوء الوضع ؛ لا يحتمل وقعها ضعفاء الروح الجبناء . لذا لا يشعرون بمسؤولية امام امتهم . فيزجون نفسم في تقلبات الحياة الخارجية لنسيانها . لانهم يتوهمون الدواء في دائهم .

هذه الاقزام المتسفلة ، تخيفها كل حركة كبرى ويرعبها شبح المثل الاعلى كما يرعب الطفل خيال غولة المتوحش .

وهي تشكل فئة الطفليين والمتزمتين وصفاء الارواح وعقلاء الشبيبة.. والاتقياء التقليديين ... يحيون بسلام (اللامبالاة ... واللاارادة).

. . . . .

اما الفئة المقابلة في اتجاه التسميم الروحي فهي فئة الدعاة الى الفكرة العالمية. وهي نشاط خارجي بارز في مجتمعات اخرى تحتل نفوس اصحابها فكرة طبقاً لطبيعتها الفنية لأن جميع الافكار - كما قلنا - لها جذورها في الحياة النفسية السائدة .

لذلك تآلفت الكتل الجنسية الغريبة في بلادنا على تسميم طبقاتنا

الشعبية بزعاف مشاعرها ونظمها العدائية .

ان المعنى الذي تنطوي عليه دعوتهم الانسانية العادلة : هو اطلاع غيرهم على شعور كاذب فيهم ينتهي بعدائهم الجنسي الدائم .

لأن هذه المباديء بمعانيها الانسانية العليا ليست الا تجليات العبقرية القومية التي تصلح ثقافة عالمية تهتدي بها الأمم الاخرى .

فالدعوة الاممية السياسية في مجتمع قومي متأخر ليس اشاعة الاحاء الانساني بل تهديم لقومية الامة .

لأن غرابة الطبقة الجنسية المشعورة عندها ، تقف حداً غير منظور لاطلاق قيود فعاليتها الشاذة دوماً في المجتمع القومي كما تتنافر مع المباديء القومية المحررة .

فبعد ان عجز اليهود ـ مثلا عن اقناع الالمان باطمئنانهم الى بذل فعالية حرة في ميادين حياتهم تجمعوا في الدعوة الماركسية الاممية دون ارادتهم .

واذا لم يكن تحقيق فكرتهم ممكناً في الحقيقة ، اوكانوا يدافعون نتائجها ـ مادياً ـ فقد كان لها هدف لا يعدو تهديم (القومية) الالمانية بقناع المذهب العلمي .

غير ان هذا لا يتعرض لرد الافكار الماركسية وجود بعض حججها في نطاق الحياة الاقتصادية بل ان تقدم امتنا المنتظر ـ في انقلاب اوضاعها ـ

لا يبتدىء الا بتحقيق مفهومنا الاقتصادي الذي اوجزناه في مقدمة الرسالة .

اعود لاقول : ان هذه (القومية) هي حدود الحياة والفعالية بين امة ما واقلياتها الجنسية . واذا عدت الى بلادنا العربية، فلا اظفر بمرتع خصب لهذه الدعوات السامة (المغلفة باسماء العدالة والنظام . .) الا بين هذه الاجناس من ارمنية او كردية او آشورية او جركسية . . .

انه عبثاً ، يفكر دعاتها ان يحققوا مبادئهم او ان يتحملوا وزر دعوتهم في ظل دولة مستعمرة معادية . غير ان الواقع يفيدنا امراً آخر :

١ ـ ان هذه الاجناس التي لا تقدر ان تعيش بسلامة العلاقات بينها وبين العرب تهب نفسها الى السياسة الدولية الخارجية لتستعملها من وجهة نظرها . سواء لتسميم فكرتنا القومية او لنشر الدعوة الاممية الاستعمارية.

٢ ـ ان مستخدمي الاستعمار الاجنبي ـ الرسميين وغير الرسميين ـ من هذه الاجناس كانوا بوقاً في بعض المناطق لهذا التصويت الفكري السام.

٣ ـ اذا تباينت هذه النتائج مع الوقائع الحادثة في بعض البلاد العربية فما ذلك الا لأن الدعوة (الاممية) (والشيوعية) لا تحدد عدواً واحداً توجه فعاليتها في وجهه. بل تتبنى وقائع مختلفة ومظاهر متعددة بعينها وضع الامة السياسي او الاقتصادي احياناً واحياناً العناصر المتجمعة حول الدعوة الاممية نفسها ، ستوضحه النقطة المتممة من البحث ويحتاج الى تفصيل لا تحتمله الدراسة الحالية .

فلأحاول ان اجد سبباً اخر لانتشار رائحة (الامية) او الشيوعية) :

ان كابوس الاوضاع السيئة ، الذي ارخى ظله الثقيل على طبقات امتنا الشعبية وحرمها الحرية والرفاهة والتقدم الفكري ، كان ولا يزال يدفع طبقات المتعلمين وغير المتعلمين - من الذين ترددت في آذانهم اصداء المذاهب الاجتماعية العالمية - ان يتبنى - كل فرد - بصورة شخصية - اي فكرة من بينها يتوهمها طريقاً نهائياً للخلاص وللتقدم .

وهكذا نعود لنقول : ان امتنا المعصبة وقعت صرعى بين الضجات الخارجية التي تزدهم في اذنها وتكذب على خلاصها .

فاذا توهمت صفوف العمال والفلاحين خلاصهم في الدعوة (الشيوعية) والمثقفين العرب بفلسفتها الامية) فما ذلك الا لفقدان حكومات صالحة تخفف وطأة المظالم والمفاسد الادارية المتزايدة - منذ عهد الاحتلال وقبله حتى الساعة التي يقرأ فيها هذا الكتاب ، في حين تكرس كل دول الارض اثمن جهودها لاسعاد طبقاتها الشعبيه .

واذا توهمت طبقات اخرى خلاصها (بالفاشية) ، كما رسمتها دولها لانفسها . فما ذلك ايضاً الا بسبب الرخاوة الشعبية والتفكك الذي حل روابطنا حكومة وشعبا على ممر العهود المتقدمة .

ان الامم التي تعمى عن رؤية نفسها ، تعيش في اجواء خارجية تفرض عليها حلولها الثقيلة فرضاً كما يفعل المريض الذي يجهل مرضه المزمن في

بلد لا يردها الاطباء حيث يتناول الوصفات التي استعملها بقية المرضى ليموت بالسبب المساعد وحماقته .

ان خروجنا على انفسنا ، ان نجلي اوضاع امتنا لاعينها في العصر الاخير وايجاد النظم المنعشة اوقع كل ذلك طبقات امتنا في ضلالها المتعدد الاتجاهات . فلا نستغرب ان تبتلع لشدة آلامها ـ شتى الوصفات القاتلة.

او بعبارة ثانية : اذا لم تفصل امتنا في امرها في الزمن المناسب بتنحية هذه الطبقات العائلية لتنمو فضائلها البانية ، فان فساد الاوضاع ومظالم الحكم سيجر كل ذلك شعبنا الى هاوية اي مذهب خارجي اودعوة سامة شيوعية ... او فاشية او شيطانية يتوهم فيها الخلاص .

ولكنما كابوس الاستعمار الداخلي الذي يتجسم في طبقة الاقطاعيين النجسين واذيالها لا يترك مجالا للخلاص الا في معركة فاصلة .

ان طبقات شبيبتنا الشعبيه اسرع ما يكون تلبية لوحي العاطفة القومية المستنيرة بالمعرفة الحديثة الواضحة . لانها تنتقل توا الى عالمها الخلقي الطبيعي والانظمة العادلة المبدعة . انها تبكي فرحا الى يوم الخلاص .. ذلك اليوم المقدس ، الذي تفديه بارواحها العزيزة .

الكلمة الاخيرة

اقف الآن بعد الفصول المنعقدة بيانا لمشكلتنا الاساسية في طبقة القيادة الاقطاعية العائلية الملوثه وآثار مسالكها المخربة لمسالك حياتنا .

فاستنبتنا على ضوء الدراسة التاريخية والواقع نقطة البدء المنبثقة عن الحاجة العميقة : وهي احياء العاطفة القومية في شعور شعبنا .

وتراني وضعت النقط على الحروف دونما انحراف او تلويح .لتبدو لأمتنا اسباب انحلالها وسبيل حريتها المثلى .

ثم انتهيت الى الكلام عن الفكرة القوميه ودعوتها بخطوطها الكبرى دون ان اعين مصدر هذه الفعالية السامية ودون ان اتعرض لمضمون وعناصر الفكرة المكونة ومن ثمة للمباديء والنظم التي تعالج الواقع المادي من وجهة نظر الفكرة المذكورة .

غير اني اقول شيئاً واحداً : انه لا مجهوداً سابقاً على المرحلة الحاضرة ينقلنا خطوة الى الامام . فمنذ الساعة التي تصبح فيها هذه العاطفة القومية منبع الهام في تقديرات الشعور والخلق نبتديء بكتابة الصفحة الاول من تاريخ حريتنا .

واني على تمام العلم ان رسالتي هذه سوف تقع موقع الصاعقة على نفوس الطبقات الاقطاعية الغريبة واذنابها العنصرية المتآمرة عن عمد على امتنا . وهي المقصودة وعلى الطبقة المتزعمة من العرب ايضاً . التي تخون مهمتها المقدسة في قيادة جمهورها .

ان هذه الطبقات الانانيه الذين ارتبط وجودها بتثبيت الاوضاع السيئة الموروثة من عرب ومن غير العرب..من المتعلمين ومن غير المتعلمين..

من الاحزاب والافراد... كل هذه المسوخ ستعرض لهذه الرسالة بالمقاومة.. والتكذيب ... والاستهتار وكل ما تمليه الانانية والجهالة المضحكة. سوف تتعرض وتتهجم من نفسها او بدفع غيرها... ماجورين او مجانا... غير انها تبرهن جميعها على امر واحد لا تعدوه.. ارادي او غير ارادي - هو حقيقة احكامنا عليها وتعمقها في كشف اسرار الازمة.

غير ان الطبقات الشعبية النظيفة من الفلاحين والعمال والمتعلمين ... الذين تمخض نفوسهم عن اتجاههم الروحي ... تلك النفوس التي تتيقظ على دورها في الحياة وليس على طولها اوسهولتها ... والتي تنعزل في خلقيتها الحرة .. بعيدة عن الافكار السامة.. والغريبة. ان كل هذه الطبقات الحيه سوف تشق طريق خلاصها - كوسيلة وكهدف - وحيدين واخيرين بوحي عاطفتها القومية وتأملها السليم.

ان هذه العاطفة هي وحي الغرائز المشتركة . . التي تقود وحدها الى الاجماع . حيث ينتهي القائد الروحي الى جمع شتيت الفعاليات في وحدة نظر عليا

هذه الوحدة (الاجماع) التي تسيطر على مصير الشعوب بعدد الفرديات التي يحركها باعث غريزي واحد تعبيراً عن ابعد الاهداف .

فعسى ان نجد الآن مكاناً لائقاً للقول الذي فات التوسع به ان القائد الاول (الزعيم) هو الذي يقود هذه الغريزة القومية بضوء شعوره التاملي الواضح .

فهو ممثل الحياة الطبيعة في المجتمع .

.....

واذا تيسر لي ان اتقدم خطوة في هذا المضمار . فاكتب عن (دولة لمستقبل القومية) ، ومهمتها ، (والوحدة السياسيا) ـ تاركا للآخرين من ابناء امتي ان يستنبطوا النظم والبرامج المنبثقة عن المباديء المتقدمة لقلب الاوضاع السيئة بالطرق المنتجة ـ اقول : اذا تيسر لي ذلك اكون اكثر فاكثر قد اطمأننت الى ارواء حاجة روحي وابرزت لامتي باصرح تعبير الحيف اللاحق بها في عصورها الاخيرة .

٩ كانون ثاني سنة ١٩٤٦

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٧	٣	النهاية	نهاية
٨	١٦	خاص	خاس
١١	٨	الحلقي	الخلقي
١٢	١٦	ويستع	ويتسع
١٢	١٨	تحتمع	تجمع
١٣	٤	حظ	خطر
١٧	١١	بحفة	بخفة
٢٦	١٢	اخلاق	خلاق
٢٧	١	الاخصاء	الاخساء
٢٩	١٢	الشعبية	الشيعية
٢٩	١٥	التزوج	التزاوج
٣٠	١٤	يقل	يغل
٣٠	١٥	قيم	قيمه
٣٠	١٥	مع	على
٣١	١	تبارت	فشكلت
٣١	١	استثماراً	استعماراً
٣٤	٤	صنعة	ضعة
٣٤	٦	صنعة	صفة
٣٤	١٥	كم	نعلم كم
٣٧	١١	تقريب	تقربت
٣٨	٤	الازاد	الافراد
٤٢	٤	اهليا	اهليها
٤٢	١١	بمراحل	بمراحله
٥٢	١٣	تجلى	تتجلى
٥٣	١٦	اما على	على
٥٣	١٨	المتدافقة	المتدافعة

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٥٥	٨	بشعور	مشعور
٥٦	١٥	للقيم	القيم
٥٩	١٨	يدعون	يثرثرون
٦١	١٥	تطغو	تطفو
٦٣	٦	الاندسار	الاندثار
٦٤	٤	نبغه	بنسغه
٦٤	٨	مثال	مثالا
٦٧	٢	مغالية	فعالية
٦٧	٧	ليست	ليس
٧٠	١	منا	كل منا
٧٠	١٧	كفاية	كغاية
٧٤	٥	مغالبته	فعاليته
٧٤	٦	فتسنمها	فتسممها
٧٧	٦	وجد	وجدوا
٧٧	١٧	نعتبر	تعتبر
٧٨	١	نسفي	نفسي
٨١	١	لى	لى
٨٤	١٤	ن	ان
٨٥	٤	كانتا	كانت
٨٥	١٠	هاجمته	فهاجمت
٨٥	١١	لتختم	لتخيم
٨٦	٢٠	فالادارة	فالارادة
٨٧	٣	وهذه	هذه
٨٧	٦	نفسه	نسغه
٩٢	٦	ممن لم	لم
٩٢	٢٠	المغنيه	المغنية

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٩٥	٢	وجهنا	وجهها
٩٧	٥	لا	الا
٩٧	٥	طفيلية	طفيليته
٩٧	٦	طبي	قطبي
٩٧	٧	واشعاره	بهواشعاره
٩٨	١٥	شح	شيح
٩٩	٦	الار	لار
١٠١	٦	لاقطاعيين	لاقطاعيي
١٠١	١٠	لهذا	هذا
١٠١	١٨	من	في
١٠٢	١٦	ان	ان نظن
١٠٣	٣	نتذكر انه	نتذكر في الوقت المناسب انه
١٠٣	٤	المزين	المزيف
١٠٣	١٧	عن	عند
١٠٤	١١	المتجردة	المتحررة
١٠٤	١٧	نبيل	نبل
١٠٥	١٣	نيمتها	قيمها
١١٠	١٨	المتجردة	المتجددة
١١٢	١٥	ولادته الى	ولادته العودة
١١٢	١٨	الروح	الروح عن
١١٥	١٠	ماتزال	التي ماتزال
١١٦	١١	كلمة	الكلمة
١١٦	١٢	او	و
١١٧	١٣	عدد	عدو
١١٨	٥	لي	بقي لي
١١٩	١٢	العائلي الوراثي المحدود :	العائلي المحدود

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٢٠	١٦	الاسر	الاسرة
١٢١	٣	حداً	جداً
١٢١	٣	الاثرة	الاسرة
١٢١	١٧	المباهات	المباهاة
١٢٢	٢	فلسفية	فلسفة
١٢٢	١١	ترفع	ترتفع
١٢٢	١٨	واذا	او اذا
١٢٢	١٢	العبيد الانذال	العبيد
١٢٣	٣	خنق	حنق
١٢٣	٥	والنقياد	والانقياد
١٢٥	٦	بالوحده	عن الوحدة
١٢٧	١٣	الحوادث	لحوادث
١٢٨	٦	فتتبوأقيادة	فتتبوأ فروع
١٢٨	١٢	يبتر	يبتر
١٢٩	٦	بالمساواة	التامة ....
١٣٠	١١	ان	انه
١٣٣	٤	اهدام	هدام
١٣٤	٦	رمم	يرمم
١٣٤	٦	تزعرت	تزعزعت
١٣٤	٩	ليسمي	ليس
١٣٥	١١	البدء	...
١٣٥	١٣	عمراً	عمداً
١٣٦	١	ساليب	اساليب
١٣٧	٩	لا	الا
١٣٨	١٧	البرد	الفرد
١٤٠	١	المنقذة	المتقدة
١٤١	١١	وصفاء	ضعفاء
١٤١	١٥	الفنية	النفسية
١٤٤	٨	تزدهم	تزدحم

8685

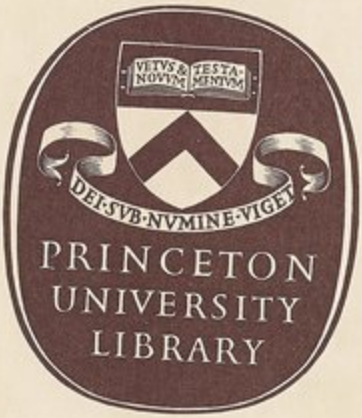

WERT
BOOKBINDING
Grantville, Pa.
NOV - DEC 1989

Princeton University Library
32101 058330521